أعلام العرب

٨٤

العارف بالله

أبو العبّاس المُرسي

تأليف : دكتور عبد الحليم محمود

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
فرع مصر — ١٩٦٩

هـــذا أبو العباس منذ نفذ الى الله
لم يحجب ، ولو طلب الحجاب لم يجده

الشاذلى

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل المرسلين ، وخير الخلق أجمعين : سيدنا محمد ، وعلى آله ، ومن اتبع هديه الى يوم الدين .

مقدمة .. وخاتمة (1)

فى هذا العصر الذى أخذت فيه الأرض زخرفها وزينتها من العناصر المادية ، وقامت فيه الحضارة الأوربية على المنهج الحسى المادى ، ولا تكاد تعترف بغيره من المناهج ، ما زال فى البيئـــات الاسلامية والحمد لله ، طوائف من أصحاب الفطر السليمة الذين يرجون للبشرية مستقبلا يضرب بأسهم وفيرة فى عالم الخير والحق: عالم الدين والروح ، عالم الاخاء والايثار .

وهذا العالم الذى تنبع أصوله من وحى السماء ، والذى يسير — أفرادا ، أو جماعات — هادفا الى تحقيق المنهج الالهى ، والمبادىء الالهية : يمثله كنماذج ، أصول ما تكون النماذج ، أئمة التصوف ، وأعلام الصوفية .

انهم يمثلونه فى المنهج الذى اتبعوه ، ويمثلونه كحقائق واقعية فى المبادىء والقواعد ، ان حياتهم منهجا وموضوعا تترسم التربية

---

(1) لقد فكرت فى أن أجعلها مقدمة ، وفكرت فى أن أجعلها خاتمة ، ثم سألت نفسى : اذا كانت هذه هى المقدمة ، فما هى الخاتمة ؟ فوجدت نفسى تشير اليها ، فعدت الى نفسى وسألتها : اذا كانت هذه هى الخاتمة ، فما هى المقدمة ؟ فوجدت نفسى تشير اليها ، انها فى حقيقة الأمر مقدمة وخاتمة ، وانها لمن الأهمية عندى بحيث لو كان مستساغا أن أكتبها مرة كمقدمة ثم أعود فأكتبها مرة أخرى كخاتمة لفعلت .

فلتكن مقدمة ، ولتكن .. خاتمة ، **وأرجو الله أن ينير بها بصائر وأن يهدى بها قلوبا .**

الالهية ، وهدى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما عظم من الأمور ، وفيما هو سهل يسير ، وهم يحاولون ما أمكن أن يكونوا بقدر الاستطاعة ورثة الأنبياء علما ، وورثة الأنبياء سلوكا ، وورثة الأنبياء أحوالا ومقامات ، بيد أن بعض الناس لا يتبين فى وضوح معنى التصوف ، ولا مدى الصلة بين الاسلام والتصوف ، ويتساءل عن ذلك بمناسبة الكتابة عن الشاذلى مثلا ، أو عن أبى العباس المرسى ويقولون فى صراحة :

هل هذا النوع من السلوك الذى أخذوا فيه ، والذى يسمى « التصوف » : من الاسلام ، أو ليس من الاسلام ؟ ولقد تساءل عن ذلك الكثيرون ، بمناسبة اخراجنا فى سلسلة أعلام العرب ، كتاب « الشاذلى » رضى الله عنه ، وكتب بعضهم فى المجلات كتابة تنبىء عن عدم وضوح الرؤية فى موضوع التصوف ، وتنبىء عن حصول لبس فى فهم مدى صلته بالاسلام :

وكل ذلك يحدث كلما ظهر كتاب عن شخصية صوفية ، وكلما نشر كتاب عن التصوف نفسه وسيحدث حتما ـ والزمن يكرر نفسه ـ بمناسبة الكتابة عن أبى العباس ، ومن أجل ذلك نكتب هذه المقدمة عن صلة الاسلام بالتصوف ، ونحاول ما أمكن الاستدلال فيها بالنصوص الشرعية ، وبأقوال الصوفية ، مبينين ـ فى غير تحيز ولا عصبية ـ وجهة النظر السليمة : ليهتدى من يهتدى عن بصيرة وليسلك من يشاء طريقهم على هدى وعلم ، وهى مقدمة أصبحت ضرورية ، ولعلها تأخرت نوعا ما ، بعد أن نشرت سلسلة أعلام العرب عدة كتب عن كبار الصوفية ، فنقول وبالله التوفيق :

الاسلام والتصوف

١ ـ ما هو المنهج الملائم ؟

ان صلة التصوف بالاسلام ـ منهجا وموضوعا ـ لا يتأتى فهمهما فهما صحيحا الا اذا عرفنا التصوف تعريفا ينطبق على حقيقته أكمل ما يكون الانطباق ، بيد أن تعريفه ليس من السهولة بمكان ، ذلك : أن تعريفات التصوف ـ كما يقول مؤرخو التصوف القدماء ـ أربت على الألف ، وكلها تعريفات لها وزنها وقيمتها ، اذ أنها بأقلام الصوفية أنفسهم ، واذا كانت هذه التعريفات بأقلام أرباب الشأن فانه من الصعوبة بمكان أن يقف الانسان منها موقف الحكم : يفضل بعضها على بعض ، ويجعل بعضها فى المرتبة الأولى ، ويجعل البعض الآخر ثانويا ، ثم ينتهى بتعريف جامع مانع : ما هو المقياس ؟ وما هو الفيصل ؟ ثم بأى سلطان يتدخل الانسان بين هؤلاء القوم ذوى المذاقات الرقيقة والمشاعر الروحية الدقيقة ؟

أبسلطان العلم : ملاحظة واستقراء ؟ ! ، أم بسلطان العقل : بحثا واستنتاجا ؟ !

أم بسلطان الروح : اشراقا والهاما ؟ !

٢ ـ التصوف والعلم :

هل يلج العلم بملاحظته واستقرائه حصن التصوف ؟ ، انه اذا فعل ذلك فانه سوف لا يلاحظ الا الشكل الخارجى ، ولا يستقرىء الا المظهر الشكلى !! ، ولا شىء بعد ذلك من روح التصوف وجوهره ، ومعنى هذا الاخفاق التام .

وحقا لقد أخفق ـ الى الآن ـ علم النفس ، وأخفق علم الاجتماع اخفاقا كاملا فى الوصول الى كنه التصوف وحقيقته .

بل ان الدراسات النفسية الحديثة ، والدراسات الإجتماعية المعاصرة : أفسدت الفكرة عن التصوف افسادا تاما ، شـأنها في ذلك : شأنها فى كل ما اتصلت به من الدراسات التى تتصل بالروح ، وبالوحى ، وبالالهام السماوى ، وبالدين على وجه العموم.

ان الدراسات النفسية والاجتماعية الحديثـة : حددت نفسها بالمادة وتقيدت بالظواهر المادية المحسة الملموسة : المرئية أو المسموعة ، أو المذوقة مذاقا حسيا ، أو المشمومة !!

وهى تعترف اعترافا صريحا لا لبس فيه : أن مجالهـا انما هو المجال المادى ؛ وأن كل ما خرج عن المجال المادى : فانه لا يدخل تحت مرصدها ومخبرها ومسـبرها ؛ واذن لا يدخل فى اطار بحثها .

والتصوف روح ، والهام ، واشراق ، فلا يدخل فى مجالها .

ومن هنا كان اكتفاء هذه الدراسات بالمظهر والشكل : ومن أجل ذلك كان اخفاقها كاملا ، وفشلها : يفجأ النظر .

ان ما نسميه : العلم الحديث : انما هو العلم السـائد فى أوربا وفى أمريكا ، فى العصر الحاضر وقد ألزم نفسه الزاما تاما : ألا يخرج عن دائرة المادة ، وحدد ـ مختارا ـ دائرته تحديدا دقيقا بأنها : المادة ، وربط نفسه بذلك ربطا محكما ، الى درجة أن كل من يخرج عن المادة لا يسمونه عالما ، وأن كل بحث فى غير دائرة الملاحظ ، المحس : لا يسمونه بحثا علميا ، ولسنا ـ الآن ـ بصدد تخطئة العلم الحديث أو تصويبه ، فيما ألزم نفسه به ، وانما نريد أن نبين فى وضوح : أن هذا الالتزام : ينفى نفيا باتا أن يتصل العلم الحديث ـ من قرب أو من بعد ـ بجوهر التصوف ومفهومه الحقيقى .

ومن أجل ذلك فان كل ما قيل بلسان العلم عن التصوف :

لا يمس منه الا المظهر والشكل ، ولا فائدة فيه بتاتا من حيث الروح والجوهر .

٣ ـ التصوف والعقل :

أنلجأ اذن الى العقل ؟ ببحثه المنطقى القيـــاسى ، والى استنتاجاته الناشئة عن المقدمات والأقيسة ؟!

أيقودنا العقل ـ آمنين ـ فى بحار التصوف اللامحدودة ، وفى رياضة العقل لا تنتهى من حيث كونهـا نفحات من التجليات الالهية اللانهائية ؟ ولكن المعروف أن العقل : لا يدور الا فى فلك المادة : انه يتسامى الى السماء ، فيبحث بأقماره ، وسفنه ، وصواريخه بين رحابها الشاسعة ، وساحاتها الرحبة ، ويغوص فى أعماق البحار فيظهر مكنوناتها ويكشف عن أسرارها ، ويتعمق فى طبقات الأرض ، فيخرج من أثقالها ، ويزيل الغمــوض عن معمياتها .

انه مبتدع الصناعة : من الابرة الى الصاروخ ، ومخترع الكيماويات سهلة كانت أو معقدة ، ومكتشف النواميس الكونية فى الأرض ، وفى السماء ، وهو أساس العلم الكسبى : علم التوليد : والاستنتاج ، والاستنباط ، على أشـكاله المختلفة ومناهجه المتعددة ..

ولكن العقل ـ ومجاله المادة : استنتاجا ، واستنباطا ـ : لا شأن له بالغيب : الغيب الالهى .

لا شأن له بالمساتير : مساتير الملأ الأعلى .

لا شأن له بكشف المحجوب : المحجوب الروحى .

لا شأن له بمعارج القدس ولا بمنازل الأرواح .

لقد أخفق العقل فى ايجاد مقياس عقلى يقيس به الصحة والخطأ فى عالم الروح ، وعجز عن اختراع فيصل يفصل به بين الحق والباطل فى مجال الغيب : لقد أخفق منهج أرسطو ، وأخفق منهج ديكارت ، وأخفق ــ الى الآن ــ كل منهج عقلى يراد منه أن يصل بنا الى عالم الالهية : يعرفنا أسراره ، ويسير بنا فى مساتيره .

واخفاق العقل فى عالم التصوف قضية اعترف بها اعترافا صحيحا فيثاغورث ، وأفلاطون وأفلوطين .

واعترف بها : الكندى ، والفارابى ، وابن سينا ، واعترف بها الغزالى ، وجميع الصوفية على الاطلاق .

وقد اعترفوا بها لما علموا من أن العقل لا يتأتى له أن يخرج عن دائرة المادة بل ان الخيال نفسه ، بل الوهم ، كل ذلك لا يخرج عن دائرة المادة ، واعترفوا بها لما رأوه من خلال التاريخ الفكرى للانسانية : من أن العقل وقف أمام منازل الروح ، ومعارج القدس عاجزا لا يحير جوابا ؟

لقد اعترفوا بها ، وبرهنوا ، وكان منطقهم من السلامة بحيث صدقه الواقع التاريخى وليس ذلك بكادح فى العقل : فله مجاله الضخم فى رحاب الكون ، وفى أغوار الأرض ، وفى أقطار السماء ، وعليه ، وبه ، قامت الحضارة المادية الحديثة ، متسلطة غلابة .

٤ ــ المنهج الصوفى :

واذا عجز المنهج العلمى المادى عن دراسة التصوف فى حقيقته ، وجوهره ، وعجز المنهج العقلى كذلك ، فان الصوفية جميعا ، وفلاسفة الاشراق ، منذ فيثاغورث ، وأفلاطون الى

الآن ، يعلنون منهجا محددا ، يقرونه جميعا ، ويثقـــون فيه ثقة تامة : ذلك هو المنهج القلبى ، أو المنهج الروحى ، أو منهج البصيرة ، وهو منهج معروف ، أقرته الأديان جميعها ، واصطفته مذاهب الحكمة : القديم منها ، والحديث ، يقول سبحانه :

« ان السمع والبصر والفؤاد : كل أولئك كان عنه مسئولا » .

انه سبحانه ذكر الفؤاد على أنه مسئول مثله فى ذلك مثل السمع فى محيطه ، والبصر فى محيطه ، والامام الغزالى معبرا عن رأى الصوفية ، وعن رأى فلاسفة الاشراق — يرى أن الدليل القاطع على أن هناك معرفة ليس مرجعها الى الحس ولا الى العقل : انما هو أمران :

« أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فانه ينكشف بها الغيب ، واذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضا فى اليقظة : فلم يفارق النوم اليقظة الا فى ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسات ، فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ، ولا يبصر : لاشتغاله بنفسه .

الثانى : اخبار رسول الله ، صلى الله عليه وسلم — عن الغيب ، وأمور فى المستقبل » .

واذا جاز ذلك للنبى ، صلى الله عليه وسلم ، جاز لغيره ، اذ النبى عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل باصلاح الخلق ، فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ، ولا يشتغل باصلاح الخلق ، وهذا لا يسمى « نبيا » بل يسمى : « وليا » . أهـ .

فمن آمن بالأنبياء ، وصدق الرؤيا الصحيحة : لزمه لا محالة أن يقر بالبصيرة ، أو بتعبير آخر يقر بباب للقلب ينفتح على عالم الملكوت ، هو باب الالهام ، والنفث فى الروع ، والوحى .

والامام الغزالى : يتشبث بالرؤيا كبرهان ، ودليل على أن هناك آلة للمعرفة غير الحس والعقل ، ويردد ذلك فى كثير من كتبه .

انه يتحدث فى المنقذ(١) عن النبوة فيقول : « وقد قرب الله تعالى ، ذلك على خلقه ، بأن أعطاهم أنموذجا من خاصية النبوة ، وهو النوم : اذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، اما صريحا واما فى كسوة مثال ، يكشف عنه التعبير ، وهذا لو لم يجربه الانسان بنفسه وقيل له : ان من الناس من يسقط مغشيا عليه : كالميت : ويزول عنه احساسه ، وسمعه ، وبصره ، فيدرك الغيب لأنكره ، وأقام البرهان على استحالته ، وقال القوى الحساسة سبب الادراك ، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها ، فبأن لا يدركها مع ركودها أولى وأحق ، وهذا نوع قياس يكذبه الوجود ، والمشاهدة » أهـ .

ولكن الامام الغزالى لا يكتفى بهذين الوجهين من الاستدلال ، بل يأتى بشواهد الشرع ، ويذكر التجارب ، والحكايات :

أما الشواهد ، فيما يرى ، فهى قوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » .

قيل نورا يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من كل الشبهات ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن قوله تعالى:

---

(١) انظر تحقيقنا للمنقذ من الضلال وتعليقنا عليه ، نشر دار الكتب الحديثة .

« أفمن شرح الله صدره للاســـلام ، فهو على نور من ربه » .

ما هذا الشرح ؟ فقال : هو التوسعة : ان النور اذا قذف به في القلب ، اتسع له الصدر ، وانشرح ، وقال عليه الصـــلاة والسلام : « ان من أمتى محدثين ، ومعلمين ، ومكلمين ، وان عمر منهم » .

والمحدث : هو الملهم ، والملهم هو الذى انكشف له الحق فى باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسات الخارجية ، والقرآن مصرح بأن التقوى : مفتاح الهداية والكشف .

ولم يكن علم الخضر عليه السلام ، علما حسيا ، أو عقليا ، وانما هو العلم الربانى ، واليه الاشارة بقوله : « وعلمنـــاه من لدنا علما » .

٥ ـ المنهج الصوفى منهج اسلامى :

المنهج اذن : منهج اسلامى صحيح سليم لا غبار عليه .. ثم هو منهج فلسفى رغم معارضة الفلاسفة العقليين ، يقره الكثير من كبار الفلاسفة : الغربيين ، والشرقيين ومن القدماء ، والمحدثين .

ثم هو منهج جرب فنجح : جربه الامام الغزالى فنجح ، وجربه غيره فنجح معهم ، وعنه يقول الامام الغزالى : « وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واســتقصاؤها ، والقدر الذى أذكره لينتفع به : أنى علمت يقينا أن الصوفية : هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن الســـير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرتهم ، وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلا ، فان جميع حركاتهم ، وسكناتهم فى ظاهرهم ، وباطنهم : مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس

وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ، وبالجملة فماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها — وهى أول شروطها — تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها — الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة — استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله ؟ .

وهذا آخرها بالاضافة الى ما يكاد يدخل تحت الاختيار ، والكسب من أوائلها ، وهى على التحقيق أول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك اليه .

ومن أول الطريقة تبتدىء المكاشفات ، والمشاهدات ، حتى انهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتا ، ويقتبسون منهم فوائد .

ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال الى درجات يضيق عنها نطاق المنطق » أ هـ .

وعن هذا المنهج يقول الأستاذ رينيه چينو : الحكيم الفرنسى — فى محاضرة ألقاها فى جامعة باريس — يقول متهكما بهؤلاء الذين يشكون فى هذا المنهج ساخرا من موقفهم الذى يصور الكسل المزرى — « يتساءل قوم : أمن الممكن أن نتخطى الطبيعة فنصل الى ما وراءها ؟ ، اننا لا نتردد فى أن نجيبهم فى وضوح واضح : ليس ذلك ممكنا فحسب ، ولكن ذلك واقع وموجود ، سيقولون : تلك قضية تفتقر الى برهان ؟ ، ولكن أى برهان يمكن أن يقدمه الانسان على وقوع هذا الأمر ووجوده ؟ انه لمن الغريب حقا أن يطالب البرهان على امكان نوع من المعرفة ، بدلا من أن يحاول الانسان أن يصل اليها بتجربته الشخصية ، سالكا اليها ما تتطلبه من سبل .

ان الشخص الذى وصل الى هذه المعرفة ، لا يعنيه فى قليل أو كثير ما يثور حولها من جدل ونقاش ، وانه لمن الواضح أن احلال : « نظرية المعرفة » محل : « المعرفة » نفسها اعلان صريح على عجز الفلسفة الحديثة » أ هـ .

٦ ــ لا يكتسب التصوف عن طريق القراءة :

والمنهج اذن : انما هو تزكية النفس ، أو جلاء البصيرة .

كيف يتأتى ذلك ؟

هل يتأتى ذلك عن طريق القراءة والدرس ؟ ، هل السبيل الى معرفة الغيب مباشرة : هو البحث ، والدرس ، والاستقصاء ، ويتفاوت الناس فى الاشراق بتفاوتهم فى شمول الدراسة ، وعموم التحصيل ؟ . كلا ، قطعا .

يقول الامام الغزالى معبرا عن الرأى الصحيح المبنى على التجربة نفسها : « ابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم : مثل : قوت القلوب لأبى طالب المكى ، رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبى ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد ، والشبلى ، وأبى يزيد البسطامى قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لى أن أخص خواصهم : ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق ، والحال ، وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابهما ، وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحا ، وشبعان : وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران ،

بل السكران لا يعرف حد السكر ، وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شيء ، والصاحى يعرف حد السكر وأركانه ، وما معه من السكر شيء ، والطبيب فى حالة المرض : يعرف حد الصحة وأسبابها ، وأدويتها ، وهو فاقد الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا .

فعلمت يقينا : أنهم أرباب الأحوال ، لا أصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطرق العلم : فقد حصلته ، ولم يبق الا مالا سبيل اليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

وابن سينا حينما أراد أن يحدد طريق البصيرة حتى يصير سر الانسان — على حد تعبيره — مرآة مجاوة ، لم يحدده بقراءة ، وبحث وانما حدده :

بارادة ، ورياضة

وأبو الحسن النورى : يرى فى صراحة أن التصوف ليس علما ، ويعلل ذلك بأنه لو كان علما ، لحصل بالتعلم ، ولكن الأمر ليس كذلك ، وليس طريق تزكية النفس اذن العلم الكسبى .

٧ — التصوف والأخلاق :

أهو الأخلاق الطيبة ؟

ان الكثير من الكتاب الحديثين — متابعين فى ذلك الكثير من الصوفية — قد حددوا التصوف نفسه — لا تزكية النفس وحسب — بأنه الخلق الطيب يقول : أبو بكر الكتانى (المتوفى سنة ٣٢٢ هـ) ، « التصوف : خلق : فمن زاد عليك فى الخلق ، فقد زاد عليك فى الصفاء » (١) .

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٤٩ .

ويقول أبو محمد الجريرى (المتوفى سنة ٣١١ هـ) – وقد سئل عن التصوف – الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى (١) » ..

أما أبو الحسن النورى ، فانه ينفى عن التصوف أن يكون رسما منهجيا تخطيطيا ، أو أن يكون علما كسبيا ، ويجزم بأنه خلق ويعلل النفى والاثبات فيقول :

« ليس التصوف رسما ، ولا علما ، ولكنه : خلق : لأنه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة ولو كان علما لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الالهية بعلم أو رسم » .

على أن أبا الحسين النورى نفسه يحدد الأخلاق التى يرى أنها التصوف فيقول : فى موضع آخر معرفا التصوف :

« التصوف : الحرية ، والكرم ، وترك التكلف ، والسخاء » .

على أن هؤلاء الذين ذكروا هذه التعاريف الأخلاقية للتصوف ، ذكروا ، هم أنفسهم ، تعاريف أخرى ، وذلك – على الأقل – يدل دلالة لا لبس فيها على أنهم : لم يروا كفاية الجانب الأخلاقى فى تحديد التصوف ، وتعريفه ..

والواقع أننا لو نظرنا الى كثير من الأشخاص الذين اشتهروا بالسمو ، فى الجانب الأخلاقى الكريم ، واتصفوا بأروع الصفات الأخلاقية ، واتخذوا الفضيلة مذهبا ، وشعارا ، فاننا نجدهم أشخاصا مثاليين فى المحيط الأخلاقى وفى المجتمع .

ولكن ليس معنى ذلك أنهم لا محالة من الصوفية . ولو نظرنا فى البيئة اليونانية ، لوجدنا داعية الى الفضيلة ، ومتمذهبا بها ،

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٤٨ .

ومحاولا نشرها بشتى الوسائل ، وبمختلف الطرق ، سواء أكان ذلك بالدعوة الاقناعية ، أم بالمنطق الجدلى ، أم بالأسوة الكريمة ، ذلك هو : سقراط : ومع ذلك فان سقراط هذا لم يكن صوفيا بالمعنى الدقيق لكلمة « صوفى » .

واذا انتقلنا الى البيئة الاسلامية ، فاننا نجد الحسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ من أروع وأجمل الشخصيات الأخلاقية العالية ، لقد كان مثلا صادقا للشعور الأخلاقى فى طهره وصفائه وكان ينشر الفضيلة بوعظه المؤثر ، ومنطقه القوى ، وسلوكه المثالى ، ومع ذلك فلم يكن الحسن البصرى صوفيا بالمعنى الدقيق لكلمة « صوفى » .

على أنه من الطبيعى : أن تكون الأخلاق الكريمة أساسا من أسس التصوف ، وأن تكون الأخلاق فى أسمى صورة من صورها ، ثمرة للتصوف .

ومن الطبيعى أيضا أن تكون الأخلاق الكريمة شعار الصوفى فيما بين الأساس والثمرة ، فهى اذن : ملازمة للتصوف وللصوفى ملازمة تامة لا تتخلى عنه ، ولا يتخلى عنها ، ويعبر ابن سينا عن بعض ما يتحلى به الصوفى من أخلاق ، معللا ذلك فيقول :

« العارف شجاع ، وكيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت ؟! ، وجواد ، وكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل ؟! ، وصفاح ، وكيف لا ونفسه أكبر من أن تجرحها زلة بشر ؟! ونساء للأحقاد ، وكيف لا وذكره مشغول بالحق ؟! » .

ولكن ليس معنى ذلك أنها هى التصوف .

٨ ـ التصوف والزهد :

هل الطريق هو الزهد ؟

ان كثيرا من النـــاس لا يكادون يفرقون بين التصوف والزهد ، وكثير منهم يرون أن الزهد هو الطريق المؤدى الى التصوف ، أو هو الطريق المؤدى الى جلاء البصيرة والواقع أننا حينما نفكر فى أمر الزهد ، نرى منه ألوانا عدة :

ان منه هذا اللون المنطقى الفلسفى ، الذى يرى صاحبه أن أسمى ما فى الحياة : انما هو الهدوء ، والسكينة ، وراحة البال ، وطمأنينة النفس ، ولا يتأتى ذلك بالجرى وراء الدنيا ، والكفاح فى سبيل الثراء والانغماس من ورائه فى الملاذ .

ان الناس يتكالبون على الدنيا تكالبا شديدا ، والقاء الانسان بنفسه فى المعركة ــ معركة التنازع على الدنيا ــ لا ينتج غالبا الا انشغال البال ، والهم ، والفكر ، والقلق ، وسبيل السكينة والراحة انما هو البعد عن مصدر النزاع .

وهؤلاء الذين يفكرون هذا التفكير ، فيؤديهم الى الزهـــد يكون زهدهم ، زهدا منطقيا ، فلســـفيا ، يقول ابن ســـينا : « المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم الزاهد » . وهذا الزاهد اما أن يكون هدفه سكينة فى الدنيا ، لا يتطلع الى غير ذلك ، وهو ما سبق أن تحدثنا عنه ، واما أن يتخطى الدنيا ، فلا تخطر له على بال ، أو يكون أمرها فى نظره ثانويا ، ويتجاوزها الى الآخرة ، يزهد من أجلها ، ويعرض عن متاع الدنيا ، وطيباتها من أجل نعيم الآخرة ، فيكون الزهد عنده ــ على حد تعبـــير ابن سينا ــ : « معاملة ما ، كأنه يشترى بمتاع الدنيا متاع الآخرة » .

وغاية هذا الزاهد من الامتناع عن طيبات هذا العالم : أن يمنحه الله فى الدار الآخرة طيبات ألذ ، وأمتع . ، ان مثله ــ فيما يرى ابن سينا ــ كمثل التاجر الذى يشترى بمتاع الدنيا ، متـــاع الآخرة ، وهؤلاء الزهاد ، لهم أجرهم وثوابهم عند الله فى الآخرة ،

ولهم سكينتهم فى الدنيا ، ولكن هذه الطريقة من الزهد المنظور فيه الى الجزاء ، والمكافأة والأجر - فيما يرى الصوفية - لا يقصد الله فيها مباشرة بالعمل ، ليكون الله سبحانه ، وحده : هو المطلوب وانما يقصد فى قليل أو كثير بطريقة شعورية ، أو لا شعورية الى نعيم الآخرة وملاذها .

والزهد الفلسفى ، وزهد الراغبين فى الأجر ، لا يؤدى الى أن يصبح السر مرآة مجاوة . وما من شك فى أن طريق الكشف عن البصيرة ينطوى على الزهد ، ويتضمنه ، ولكنه زهد ، هو تسامى ، عن أن يكون لغير الله شأن يشغل نفسه به فكل ما سواه سبحانه لا يساوى جناح بعوضة ، انه « تنزه ما ، عما يشغل سره عن الحق ، وتكبر على كل شىء غير الحق (١) » . ان الطريق ينطوى على الخلق الكريم ، وعلى الزهد الخاص ، ولكنه يتجاوزهما الى شىء آخر .

٩ - التصوف والعبادة :

هل هذا الشىء الآخر هو العبادة ؟!

هل الطريق هو المواظبة على نعل العبادات : فرائض ، ونوافل ؟ ، هل هو الاكثار من النوافل : قياما بالليل ، وصوما بالنهار ، ونحو ذلك ؟ .

ان للعبادة أثرا ، لا ينكره أحد فى تصفية النفس ، وتزكية الروح ، ولكنها اذا كانت تهدف من وراء ذلك الى دخول الجنة ، ونيل الأجر ، والثواب ، بقيت عبادة مشكورة مأجورا صاحبها ، مثابا عند الله سبحانه ، ولا يتجاوز القائم بها - على هذا الوضع ، وبهذه الصورة - وصف العابد الى وصف الصوفى .

---

(١) الاشارات : لابن سينا .

ووصف العابد من غير شك منزلة عظمى ، ولكن العبادة على هذا النمط كأنها : « معاملة ما »(١) والعابد على هذا الوضع : « كأنه يعمل فى الدنيا لأجرة يأخذها فى الآخرة : هى الأجر والثواب (٢) » .

أما الصوفى ، فانه : « يريد الحق الأول ، لا لشىء غيره ، ولا يؤثر شيئا على عرفانه وتعبده له فقط ، ولأنه مستحق للعبادة ، ولأنها نسبة شريفة اليه ، لا لرغبة أو رهبة » .

وتعبر السيدة رابعة العدوية عن هذا المعنى فتقول : « الهى ، اذا كنت أعبدك رهبة من النار ، فاحرقنى بنار جهنم ، واذا كنت أعبدك رغبة فى الجنة فأحرمنيها ، وأما اذا كنت أعبدك من أجل محبتك ، فلا تحرمنى يا الهى من جمالك الأزلى » .

وتقول رضوان الله عليها : « ما عبدته خوفا من ناره ، وحبا لجنته ، فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حبا وشوقا اليه » .

والواقع أن الله سبحانه وتعالى ، اذا عبد رغبة فى الجنة ، أو عبد رهبة من النار فانه سبحانه لا يكون المطلوب الأول ، ولا يكون الغاية التى يسعى اليها العابد ، وانما يكون سبحانه كأنه واسطة بين العابد وما رغبه وهو : الجنة ، أو رهبة وهو : النار . وعبادة العباد التى على هذا الوضع ، اذن : لا تنتهى بهم الى أن « يصبح السر مرآة مجلوة ، يحاذى بها شطر الحق » .

١٠ ـ وأن الى ربك المنتهى :

والصوفى : عابد ، وهو زاهد ، وهو على خاق كريم ، ولكنه يتجاوز ذلك كله الى شىء آخر ، هو هذه : « الارادة والرياضة » : الارادة المصممة ، الإرادة التى لا تلين الارادة التى تزيل ـ لقوتها

(١ ، ٢) الاشارات : لابن سينا .

وتصميمها ــ كل ما يقف أمامها من عقبات فى سبيل الوصول الى الله سبحانه .

والرياضة التى تتخذ الله هدفها ، والتى تتمثل ــ فى وضوح ــ فى معانى الهجرة الى الله ، والذهاب اليه سبحانه ، والفرار اليه . جل وعلا .

« الارادة والرياضة » لتحقيق المعنى الجليل للآية القرآنية الكريمة :

« وأن الى ربك المنتهى » .

وتتعاون الارادة والرياضة فى الوصول ــ بتوفيق الله ــ الى هذا المنتهى الذى لابد من الوصول اليه ، لتستقر الارادة وتسكن .

ان الله سبحانه وتعالى ، يأمرنا ــ على لسان نبيه ، صلى الله عليه وسلم ــ بالفرار اليه :

« ففروا الى الله ، انى لكم منه نذير مبين » .

والانسان يفر الى الله من الكفر الى الايمـــان ، ويفر الى الله من الطاعات الى القربات ويفر من الكون الى المكون ، ومن النعمة الى المنعم .

ومن الخلق الى الخالق ، ومن نفسه الى ربه .

ان الفرار الى الله لا نهاية له ، لأن الترقى لا نهاية له ، وكما أن الفرار الى الله : مستمر دائم ، فان الهجرة اليه سبحانه ، مستمرة دائمة ، يقول سيدنا ابراهيم ، صلوات الله عليه :

« انى مهاجر الى ربى انه هو العزيز الحكيم » .

انه ، صلوات الله عليه ، مهاجر الى ربه بكل عمل يعمله ، انه

مهاجر اليه بحركاته وسكناته ، وأنفاســه ، ومهاجر اليــه بنومه ، وصحوه ، ومهاجر اليه بكل نفس من أنفاسه .

والهجرة الى الله والفرار اليه : بمعنى واحد ، وهو معنى مستغرق ، شامل ، يشرحه ـ فى عمومه وشموله ـ قول المصطفى صلوات الله عليه وسلامه ، ممتثلا أمر الله سبحانه وتوجيهه ، فى قوله تعالى « قل ان صلاتى ونسكى ، ومحياى ، ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » .

وصلاة الانســان اذن ونسكه ، ومحياه ، ومماته : انما تكون ـ فى الوضع الاسلامى السليم ـ ، لله ، سبحانه ، وحده ، حيث لا شريك له : من حب مدح ، أو ثناء أو زلفى ، أو جنة ، أو بعـد عن النار : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطا » .

والرياضة : ذكر دائم ، أى تذكر له سبحانه ، فى كل لمحة ونفس ، وهى اتجاه بكل الأعمال الى الله ، وهى هجرة لا تنقطع اليه سبحانه .. وقد تتعذر فى المبدأ وتشق فى أول الطريق ، فكان لابد من تهيئة الجو المناسب للمران ، والتعبد فترة من الزمن .

وهذه التهيئة تتمثل فى الخلوة ، والعزلة ، فترة تطـول أو تقصر بحسب طبيعة الانسان : فقد لاتعدو أن تكون أسبوعا ، أو ثلاثة أسابيع ، أو أربعين يوما ، كأنها اجازة روحية مثلها فى ذلك ـ بالنسبة للروح ـ مثل الاجازة الجسمية التى يســتمر الانسان فيها فى الصيف ما يقرب من شهور ثلاثة .

على أنه ، بينما تتكرر الاجازة الجسمية كل عام أكثر من شــهر لا تتكرر الاجازة الروحية ، اللهم الا فى الاعتكاف فى شهر رمضان : عشرة أيام من كل عام اتباعا لسنة المصطفى صلوات الله عليه ، بالنسبة لكل مسلم .

« الارادة والرياضـــة » ومع ذلك فان الأمر ـ كمـــا يرى الصوفية ـ مرده الأخير : الى .. فضل الله واحسانه ..

١١ ـ منهج التصوف فيما يرى : الغزالى ، وابن خلدون :

... وهذه المعانى يلخصها الامام الغزالى فيقول :

« ان الطريق الى ذلك ، انما هو : تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعـالى ، ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

واذا تولى الله أمر القلب ، فاضت عليـه الرحمـــة ، وأشرق النور فى القلب وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقـــائق الأمور الالهية ، فليس على العبد الا الاستعداد ، بالتصفية المجردة، واحضار الهمة مع الارادة الصادقة والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة .

فالأنبياء ، والأولياء انكشف لهم الأمر ، وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب ، بل بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى (فمن كان لله ، كان الله له) ، وهو بفعله هذا : يصير متعرضا لنفحات رحمة الله ، وليس له اختيار فى استجلاب هذه النفحات . وليس له الا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة ، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريقة . واذا صدقت ارادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته ، تلمع لوامع الحق فى قلبه ويرتفع الحجاب بلطف خفى من الله تعالى ، فينكشف له الغيب ، ويحصل له اليقين » .

ويلخصها ويجملها ابن خلدون فيقول :

« ثم ان هذه المجاهدة ، والخلوة ، والذكر : يتبعها ــ غالبا ــ كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله ، ليس لصاحب الحس ادراك شيء منها ، والروح من تلك العوالم .

وسبب هذا الكشف : أن الروح اذا رجعت عن هذا الحس الظاهر الى الباطن : ضعفت أحوال الحس ، وقوى الروح ، وغلب سلطانه ، وتجدد نشوه .

وأعان على ذلك الذكر ؛ فانه كالغذاء لتنمية الروح ، ولا يزال فى نمو وتزيد الى أن يصير شهودا بعد أن كان علما ، ويكشف حجاب الحس ، ويتم وجود النفس الذى لها من ذاتها ، وهو عين الادراك ، فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية ، والعلوم اللدنية ، والفتح الالهى ، وتقرب ذاته ــ فى تحقيق حقيقتها ــ من الأفق الأعلى : أفق الملائكة .

وهذا الكشف كثيرا ما يعرض لأهل المجاهدة ، فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم ، وكذلك يدركون كثيرا من الواقعات قبل وقوعها ، ويتصرفون بهممهم ، وقوى نفوسهم فى الموجودات السفلية ، وتصير طوع ارادتهم ؛ فالعظماء منهم : لا يعتبرون هذا الكشف ، ولا هذا التصرف ، ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمروا بالتكلم فيه بل يعدون ما وقع لهم من ذلك : محنة ؛ ويتعوذون منه ، اذا وقع لهم .

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم : على مثل هذه المجاهدة ، وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ ؛ لكنهم لم يقع لهم بها عناية ، وفى فضائل أبى بكر ، وعمر وعثمان ، وعلى رضى الله عنهم ، كثير منها ، وتبعهم فى ذلك أهل الطريقة : ممن اشتملت رسالة القشيرى على ذكرهم ، ومن تبع طريقتهم من بعدهم » .

وهكذا : نرى أن المنهج : منهج اسلامى ، وأن وسيلة المنهج أو طريقة تحقيق المنهج ، أو بتعبير أصح ، خطوات المنهج ، انما هى خطوات اسلامية .

١٢ ـ ثمرة المنهج :

الام يؤدى هذا المنهج ؟

اذا اتبعنا هذا المنهج ، ووفق الله ، فما هى النتيجة ؟ ، وما هو الهدف الذى يسعى الصوفى ـ للوصول اليه ؟ .

اننا فى سبيل الوصول الى رأى سليم : نبدأ أولا بتقسيم الاسلام للبشر من ناحية درجتهم عند الله ـ والأساس فى ذلك انما هو قوله تعالى : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وطريق التقوى فى ترقيه وتساميه ، لا يكاد يقف عند حد ، واكرام الله للانسان اذن مستمر كلما زادت التقوى حتى يصل هذا الاكرام الى درجات لا يكاد يتصورها أحد ، ويعبر عنها ويشرحها الحديث القدسى الذى رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن رب العزة جل وعلا :

« من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وان سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

وأولياء الله هؤلاء قسمهم الاسلام ـ بحسب قربهم من الله ـ الى طوائف بعضها أقرب من بعض ، وكلها قريبة منه سبحانه ، تنعم فى رضاه ، وفى رضوانه ، فقال سبحانه :

« ومن يطع الله والرسـول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما (١) » .

هناك اذن أنبياء ، وصديقون ، وشهداء ، وصالحون ؛ هناك السابقون وهناك أهل اليمين ، هنـاك المقربون ، وهناك الأبرار ، والناس منهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصـد ، ومنهم سـابق بالخيرات باذن الله ، وتفاوتهم فى التقوى مرتب على تفاوتهم فى التوحيـد .

وقمة التوحيد : أن يشهد الانسان : أن لا اله الا الله ، وهؤلاء الذين يشهدون أن لا اله الا الله ، هم أولو العلم ، يقول سـبحانه :

« شـهد الله أنه لا اله الا هو ، والملائكة ، وأولو العلم ، قائما بالقسط : لا اله الا هو العزيز الحكيم » (٢) .

هذه الشهادة فى قمتها ليست مجرد كلمة تقال ، ولا مجرد لفظ ينطق به انسان من بين شفتيه . فيمر كما يمر أى لفظ آخر . ان لكلمة الشهادة معنى محددا هو هذا المعنى الواقعى الذى يحدث حينما يكون هناك شاهد ومشهود ، لابد فى الشهادة من شاهد ، ولابد من مشهود ، ولابد من أن يشاهد الشاهد المشهود والا فهى شهادة .. تجاوزا .

ولقد شهد الله على الحقيقة ، وتشهد الملائكة على الحقيقة ، ويشهد أولو العلم على الحقيقة : ان لا اله الا الله :

ولقد اختص أولو العـلم من بين البشر بهذه الشهادة ، فحققوا بها قمة التوحيد ، وكانوا بسبب ذلك فى الذروة من الاكرام الالهى :

---

(١) النساء ٦٩ ــ ٧٠ .

(٢) آل عمران ١٩ .

فشهدوا مع الله سبحانه ، ومع الملائكة بأنه تعالى : لا اله الا هو ، وشهادة التوحيد هى الغاية فى الدين ، وهى دعوة الأنبياء جميعا .

وهذه الغاية نفسها ، هى التى يلتمسها المتصوفة بكل وسيلة، وهى التى يسعون اليهـــا جاهدين ، انها أملهم ممسين ، وأملهم مصبحين ، وهى ـ لا غيرها ـ التى تنأى بجنوبهم عن المضاجع بل تجعل جنوبهم نفسها ، تتجافى عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا: خوفا من الحرمان وطمعا فى القرب .

وغاية الصوفى اذن : هى الغاية الاسلامية ، وجوهر أهدافه : هو جوهر أهداف الاسلام ، انها الشهادة ، انها شـــهادة أن لا اله الله .

ان الطريق انما هو تزكية النفس .

والغاية الشهادة : اشـــهد أن لا اله الا الله ، الشـــهادة على حقيقتها وهذا هو التصوف : طريقا ، وغاية .

١٣ ـ تعريف التصوف :

ولقد عبروا عن ذلك فى صراحة لا لبس فيها ، وفى وضوح لا غموض فيه ، ونبدأ بذكر أقوالهم فى تعريف التصوف منظورا اليه باعتباره منهجا :

وهذه التعريفات : اما أن تصور المنهج : شاملا ، واما أن تصور جزءا منه :

١ ـ الصوفى : من صفا قلبه (١) : (تزكية النفس) .

---

(١) بشر الحافى : (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ) .

٢ ـ التصوف : تمام الأدب (١) (المنهج فى جانبه الأخلاقى) .

٣ ـ الصوفى : من صفى ربه قلبه ، فامتلأ قلبه نورا ، ومن حل فى عين اللذة بذكر الله (٢) .

٤ ـ التصوف : أن يختصك الله بالصفاء ، فمن اصطفى من كل ما سوى الله فهو الصوفى (٣) .

٥ ـ وللجنيد بالنسبة لتعريف التصوف أكثر من تعريف كل منها يوضح جانبا من الجوانب :

منهجا كان أو غاية . وقد بلغت تعريفاته أكثر من عشرة تعريفات . والتعريف الآتى يصور جوانب كثيرة ، ولكنه مع ذلك لا يأتى على كل الجوانب ، يقول : « التصوف : تصفية القلوب ، حتى لا يعاودها ضعفها الذاتى ، ومفارقة أخلاق الطبيعة ، واخماد صفات البشرية ، ومجانبة نزوات النفس ، ومنازلة الصفات الروحية ، والتعلق بعلوم الحقيقة ، وعمل كل ما هو خير الى الأبد ، والنصح الخالص لجميع الأمة ، والاخلاص فى مراعاة الحقيقة ، واتباع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الشريعة » .

وهناك بعض تعريفات تتصل بالغاية ، فقد سئل الشبلى : ما بدء هذا الشأن ، وما انتهاؤه ؟

فقال : بدؤه معرفته ، وانتهاؤد ، توحيده ، أى نهايته ، أشهد أن لا اله الا الله .

---

(١) ابو حفص الحداد : (المتوفى حوالى ٢٦٥ هـ) .
(٢) أبو سعيد الخراز : (المتوفى قبل ٢٩٧ هـ) .
(٣) الجنيد البغدادى : (المتوفى سنة ٢٩٧ هـ) .

بيد أن هذه التعريفات كلها تعتبر قاصرة ، وقيمتها الكبرى فى أنها تصور جانبا من الجوانب ، أو زاوية من الزوايا ، وهى حينما تصور المنهج وحسب فانها لا تصور التصوف كاملا ، وحينما تصور الغاية وحسب ، فانها لا تصور التصوف على ما يراه القدماء والمحدثون .

وهؤلاء القدماء والمحدثون ــ سواء أكانوا من الصوفية ، أم من مؤرخى التصوف ــ يتجهون الى أن التصوف منهج وغاية ، انه طريقة وحقيقة ، انه سلوك ونتيجة .

والصوفية يشبهون الوحدة التى تجمع بين المنهج والغاية بالدائرة ومركزها يقول الشيخ عبد الواحد يحيى : « ان الطريقة هى الخط الذاهب من الدائرة الى المركز ، وكل نقطة على الدائرة هى : مبدأ الخط ، وهذه الخطوط التى لا تحصى ، تنتهى ـ كلها ـ الى المركز ؛ انها « طرق » وهى طرق تختلف تبعا لاختلاف الطباع البشرية ، ولهذا يقال :

« الطرق الى الله كنفوس بنى آدم » .

ومهما اختلفت فالهدف واحد ، لأنه لا يوجد الا مركز واحد ، والا حقيقة واحدة ، على أن هذه الاختلافات الموجودة فى المبدأ ، تزول شيئا فشيئا مع زوال الانية ، وذلك حينما يصل السالك الى درجات عليا ، تزول فيها : « صفات العبد » ، التى ليست الا سجنا : « الفناء » فلا تبقى الا الصفات الربانية : « البقاء » .

والطريقة ، والحقيقة مجتمعتان يطلق عليهما : « التصوف » ، وهو ليس مذهبا خاصا ، لأنه الحقيقة المطلقة .

وليست الطرق مدارس مختلفة ، لأنها طرق ، أى سبل موصلة جميعها الى الحقيقة المطلقة : « التوحيد واحد » .

١٤ ـ تعريف التصوف فيما نرى :

وفى خاتمة ما سبق نقول :

ان التعريف الذى نراه ، والذى يجمع جوانب التصوف ، انما هو تعريف الكتانى الذى يقول :

التصوف : صفاء ومشاهدة .

ونقول فى يقين ناتج من كل ما سبق ، وهو يقين يسد الطريق فى وجه كل من يحاول أن يثير أوهاما ضد التصوف والصوفية .

ان المنهج الصوفى ، انما هو تحقيق واقعى لقوله تعالى :

« قد أفلح من زكاها » .

فتزكية النفس هى صفاؤها ، وتصفيتها ، انها الوصول بها الى الصفاء . والمنهج محاولة للقرب ـ ما استطاع الانسان الى ذلك سبيلا ـ من :

« قل ان صلاتى ، ونسكى ، ومحياى ، ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

أما الغاية فانها : الوصول الى المشاهدة التى يقول الله تعالى فى بيان من حققوها وتحققوا بها :

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم » .

ان الغاية هى الوصول الى :

أشهد أن لا اله الا الله

حياة أبى العبّاس

انها رؤيا رمزية لطيفة ، تعبر فى عمق عميق ، وفى دقة دقيقة : عن مكانة العارف بالله أبى العباس المرسى من شيخه أبى الحسن الشاذلى ، رضى الله عنهما .

يروى ابن عطاء الله السكندرى فى كتابه اللطيف : « لطائف المنن » ما يلى :

« أخبرنى بعض أصحابنا قال : رأى انسان من أهل العلم والخير كأنه بالقرافة الصغرى والناس مجتمعون يتطلعون الى السماء ، وقائل يقول : الشيخ أبو الحسن الشاذلى ينزل من السماء ، والشيخ أبو العباس مرتقب لنزوله ، متأهب له .

فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء ، وعليه ثياب بيض ، فلما رآه الشيخ أبو العباس ثبت رجليه فى الأرض وتهيأ لنزوله عليه ، فنزل الشيخ أبو الحسن عليه ، **ودخل من رأسه حتى غاب فيه** .. واستيقظت » أ هـ .

هذا الرمز الجميل لصلة أبى العباس بالشاذلى : هذا الرمز الذى يشير الى الاتحاد بينهما فى المنهج والفكر ، والسلوك ، يجاريه ويسير معه فى نسق واحد ما رواه ابن عطاء الله أيضا ، قال : من المشهور بين أصحاب الشيخ أبى الحسن وغيرهم ، أن الشيخ كان يوما بالقاهرة ، فى دار الزكى السراج ، وكتاب المواقف للنفرى يقرأ عليه فقال : أين أبو العباس ؟ ، فلما جاء ، قال : يا بنى تكلم ، يا بنى تكلم ، بارك الله فيك ، تكلم ولن تسكت بعدها أبدا .

فقال الشيخ أبو العبـــاس : فأعطيت فى ذلك الوقت لسان الشيخ .

ويجاريه أو يتطابق معه فى صورة جميلة أيضـــا ما قاله الشاذلى ، رضى الله عنه ، له : « يا أبا العبـــاس ما صحبتك الا لتكون أنت أنا ، وأنا أنت » .

لم يمت الشاذلى رضى الله عنـــه حين مات ، وانما غاب فى أبى العباس ، أو بقى فى أبى العباس ، لقد كان أبو العباس امتدادا للشاذلى ، فقد غاب فيـــه ، وكان لسانه ، وكان هـــو هو ، وكان الشاذلى ، هو الحلقات الأولى فى الطريق ، وأخذت هذه الحلقات تتسلسل متحدة لألاءة على مر الزمن فكانت مدرسة بدأها فى قوة قوية أبو الحسن وتابعه وترسم خطاه على هدى وعلى بصيرة من تبعه ، وكان على رأس التابعين أبو العباس .

ولقد كان الشاذلى يحب أبا العباس كما يحب الانسان صورة لنفسه ، أو كما يحب أثرا من آثاره ـ أو كما يحب ابنا نجيبـــا من أبنائه .

وتقدير الشاذلى لأبى العباس تقدير جميل : انه يذكره غير مرة مبصرا الناس بشأنه فيقول عنه مرة : هذا أبو العباس منذ نفذ الى الله لم يحجب عنه ولو طلب الحجاب لم يجده .

ويقول مرة أخرى للشيخ الصالح زكى الدين الأســوانى : يا زكى ، عليك بأبى العباس ، فوالله انه ليأتيه البدوى يبول على ساقيه ، فلا يمسى عليه المساء الا وقد وصله الى الله .

يا زكى ، عليك بأبى العباس ، فوالله ما من ولى لله كان أو هو كائن الا وقد أطلعه الله عليه .

يا زكى ، أبو العباس هو الرجل الكامل .

ومرة ثالثة يقول عنه : أبو العباس بطرق السماء أعرف منه بطرق الأرض . وكان يشيد به ، ويعرف الناس بمكانته الروحية العالية : يقول الشيخ ماضي بن سلطان : وقع بيني وبين أبى العباس كلام فسمعني الشيخ فقال لى :

يا ماضى الزم الأدب مع أبى العباس ، فوالله انه لأعرف بأزقة السماء أكثر مما تعرف أنت أزقة الاسكندرية .

ولقد كان أبو العباس من جانبه وفيا كل الوفاء لتربية شيخه وتعاليمه ، وقد كان يذيعها معترفا بفضله وفضلها ، فمن ذلك مثلا: أنه كان يفسر قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم (١) » .

فأخذ يقول عن شيخه أبى الحسن رضى الله عنهما : ذكر توبة ما لا يذنب لئلا يستوحش من أذنب ، لأنه ذكر النبى صلى الله عليه وسلم ، والمهاجرين ، والأنصار ، ولم يذنبوا ، ثم قال : وعلى الثلاثة الذين خلفوا .

فذكر من لم يذنب ليؤنس من أذنب ، فلو قال أولا : « لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا ، لتفطرت أكبادهم » .

ولقد كثر حديثه عن شيخه ، فكان يقول كثيرا : قال الشيخ ، قال الشيخ .. فقال له انسان : لا نراك قط تسند لنفسك كلاما ؟! ، فقال رضى الله عنه :

(١) التوبة ١١٨ ..

لو أردت عدد الأنفاس أن أقول : قال الله عز وجل ، قال الله عز وجل ، لقلت :

لو أردت عدد الأنفاس أن أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقلت :

ولو شئت أن أقول عدد الأنفاس : قلت أنا ، لقلت .

ولكن أقول : قال الشيخ : وأترك نفسى أدبا .

وروى صاحب درة الأسرار ، قال : ومن مكاتباته من الاسكندرية يجاوب بعض أصحابه بتونس ، ووقفت على هذا الكتاب بخطه رضى الله عنه ، كتاب طويل يسأله عن الحال ويقول فى آخره : « والأحوال ما هى كما تعهد ، وانى صحبت رأسا من رءوس الصديقين وأخذت منه سرا ، لا يكون الا لواحد بعد واحد ، والشرح يطول ، وبه أفتخر ، واليه أنسب رضى الله عنه ، وهو أبو الحسن الشاذلى ، وكان لا يصحبه أحد الا فتح الله له فى يومين أو ثلاثة ، فان لم يجد شيئا بعد ثلاثة أيام فهو كذاب ، أو يكون صادقا ، ولكنه أخطأ الطريق ، ودليله من كتاب الله عز وجل « قال رب اجعل لى آية ، قال : آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا » .

وكان يقول : اذا عرضت لك الى الله حاجة فأقسم عليه بى ، فكنت والله لا أذكره فى شدة الا انفرجت ، ولا على أمر صعب الا هان ، وأنت يا أخى اذا كنت فى شدة فأقسم على الله به ، وقد نصحتك والله يعلم ذلك ، والسلام » .

وهذا كله توضيح للرؤيا التى صدرنا بها هذا الفصل ، وهى مع ذلك فى وقتها الدقيقة غير محتاجة الى توضيح ، والواقع أن أبا الحسن رضى الله عنه ، كان امتدادا لأبى العباس فى الماضى ، وكان أبو العباس امتدادا له بعد انتقاله .

ومن الطريف فى الرؤيا أنها تذكر ، أن أبا العباس عندما رأى الشيخ نازلا من السماء ثبت رجليه فى الأرض ، وتهيأ لنزوله عليه ، وهذا يشير الى أن محاولة أبى العباس أن يكون فى وحدة واحدة مع الشاذلى رضى الله عنهما لم تكن سهلة ، وانما احتاجت الى جهد عبر عنـه بتثبيت الرجلين فى الأرض ، والتهيؤ للنزول ، ويرشد من جانب آخر الى ان مقام أبى الحسن مقام كبير يحتاج تمثله الى جهد غير هين .

من هو أبو العباس ؟

وكيف اتصل بأبى الحسن ؟

اننا حينما نريد الحديث عن حياة أبى العباس الشخصية فاننا لا نكاد نجد شيئا يذكر ، لم يكن أبو العباس معنيا بالحديث عن نفسه ، ولم يكن مهتما بالتأريخ لحياته . انه لم يتحدث عن أسرته ، ولم يتحدث عن نفسه ، ولم يشد بأفعاله ، لقد فنى فى أبى الحسن ، فلم يكن فى آفاقه فراغ للحديث عن نفسه ، ثم فنى فى الدعوة الى الله بعد أبى الحسن ، فلم يكن فى آفاقه فراغ للحديث عن نفسه .

وما كان فناؤه فى أبى الحسن ، ولا فناؤه فى الدعوة الا فناء فى الله ورسوله ، فى حبهما ، وفى العمل جاهدا على مرضاتهما ، ومن كان كذلك لا يهتم بالحديث عن نفسه .

على أن النزعة العامة عند الصالحين فى اتجاههم الحثيث الصادق الى الله ، انما هى الفناء الانية ، انها الذوبان فى الرسالة : الذوبان فى تحقيق الرسالة أولا : فى النفس ، بالتزامها التزاما تاما . وثانيا : فى المجتمع بالعمل الجاهد على نشرها ، وتحقيقها واقعيا ، ومثلهم فى ذلك هو رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، يلقى بالأضواء كلها على الرسالة ، وما كان يهتم بنشر الأخبار عن حياته الشخصية ، اللهم الا اذا كان لابد من ذلك من أجل الدعوة نفسها .

على أن الصوفية ينفرون عادة من الحديث عن أنفسهم ، اللهم الا اذا كان فى ذلك بيان وايضاح لدعوتهم ، وفى هذه الحالة لا يكون الحديث حديثا عن النفس ، وانما يكون حديثا عن الدعوة ، (وقد سئل الشبلى — رضى الله عنه — يوما فقيل له : لم سميت الصوفية بهذه التسمية ؟ ، فقال : لبقية بقيت عليهم من نفوسهم ، ولولا ذلك لما تعلقت بهم التسمية) .

فالصوفية : يحاولون الغاء الانية ، انهم يهدفون حتى الى الغاء أسمائهم لو استطاعوا فيعيشون فناء كاملا فى الله سبحانه وتعالى ، ولله عز وجل ، أى فى سبيل الله تبارك وتعالى .

واذا ما جئنا الآن لأبى العباس المرسى ، فان التاريخ يحدثنا أنه : ولد فى الأندلس فى بلدة « مرسية » التى ينسب اليها ، ولد سنة ٦١٦ هـ — ١٢١٩ م ، ويتصل نسبه بالأنصار الذين أخبر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن حبهم من علامات الايمان ، أن نسبه يتصل بسعد بن عبادة ، سيد الخزرج .

ولد فى « مرسية » ونشأ بها ، حيث كان والده يعمل فى التجارة ، ويبدو أن حالة الوالد كانت من اليسر بحيث مكنته من ارسال ابنه الى مؤدب لتعلم القرآن ، والتفقه فى أمور الدين ، يقول أبو العباس :

« كنت وأنا صبى ، عند المؤدب ، جاء رجل فوجدنى أكتب فى لوح ، فقال : الصوفى لا يسود بياضا ، فقلت : ليس الأمر كما زعمت ، ولكن لا يسود الصحائف بسود الذنوب » .

هذه القصة تدل دلالة واضحة على ذكاء غير عادى ، وعلى مهارة وفهم لا يوجدان فى المستوى العام ، فى أطفال المكاتب ، وترسم أيضا اتجاها الى الصلاح ، والتقوى منذ هذه السن المبكرة .

أما نشأة أبى العباس على الصلاح والتقى فى هذه السن المبكرة ، أو بتعبير أدق ، صقل فطرته الصافية ، وتثبيتها على الصلاح والتقى ، فقد تكفل بها المؤدب الذى كان يفقهه ويربيه ، يقول أبو العباس :

عمل الى جانب دارنا خيال الستار ، وأنا اذ ذاك صبى ، فحضرته ، فلما أصبحت أتيت الى المؤدب ، وكان من أولياء الله تعالى ، فأنشد حين رآنى :

يا ناظرا صور الخيال تعجبا وهو الخيال بعينه لو أبصرا

وخجل أبو العباس ، وعزم فى نفسه أن يأخذ فى حياته مسلك الجد .

ولما بلغ مرحلة الشباب ، وبلغ درجة الاستقلال بنفسه فى التفقه والدراسة ، أخذ فى معاونة والده فى الأعمال التجارية ، فكان التاجر الصدوق . ذلك كل ما نعلم عن أبى العباس ، قبل سنة ٦٤٠ هـ أربعين وستمائة هجرية . وفى سنة ٦٤٠ هـ ـ ١٢٤٢ م حزم الوالد أمره ، ورتب شئونه ، على أن يقوم بالحج الى بيت الله الحرام ، وأخذ الأسرة معه ، وركبوا البحر ، وشاءت ارادة الله سبحانه وتعالى أن تهب عليهم عاصفة بالقرب من شاطىء بونة ، فاستشهد والده ووالدته غرقا ، ونجا هو ، وأخوه محمد ، فيمما شطر تونس ، واتجه محمد نحو الأعمال التجارية ، على غرار والده ، أما أحمد فلم يكن حنينه الى التجارة وانما كان حنينه الى مهنة المؤدب الذى كان من أولياء الله ، وكان هواه فى تعليم القرآن ، وفى الانغماس فى أنوار القرآن فاتخذ من زاوية الفقيه « محرز بن

خلف » مكانا يعلم فيه القراءة والكتابة ، ومبادىء الدين والقرآن الكريم .

وكأن المقادير أتت به من « مرسية » ، الى « تونس » لأجل أن يكون ثانى خلفاء الطريقة الشاذلية ، وليكون داعية الى الله ، ليكون امتدادا للشاذلى ، وليكون قطبا من كبار الأقطاب ، وعلما من أشهر الأعلام .

وانه ليقص كيفية اتصاله بالشاذلى ، فيقول : « فلما نزلت بتونس ، وكنت أتيت من « مرسية » ـ وأنا اذ ذاك شاب ـ سمعت بذكر الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، فقال لى رجل : تمضى بنا اليه ، ، فقلت حتى أستخير الله فنمت تلك الليلة ، فرأيت كأنى أصعد الى رأس جبل ، فلما علوت فوقه ، رأيت هنالك رجلا ، عليه برنس أخضر ، وهو جالس ، وعن يمينه رجل ، وعن يساره رجل فنظرت اليه ، فقال : عثرت على خليفة الزمان ، قال : فانتبهت .

فلما كان بعد صلاة الصبح ، جاءنى الرجل الذى دعانى الى زيارة الشيخ فسرت معه فلما دخلنا عليه ، رأيته . بالصفة التى رأيته بها فوق الجبل ، فدهشت !! ، فقال لى : عثرت على خليفة الزمان : ما اسمك ؟ ، فذكرت له اسمى ، ونسبى ، فقال لى : رفعت لى منذ عشر سنين ، وبهره أبو الحسن : بهره بحديثه المنطلق ، والهاماته المتدفقة ، وسلوكه الربانى ، فلازمه أبو العباس ملازمة المريد الصادق لشيخه العارف .

ورأى الشاذلى فيه فطرة طاهرة ، ونفسا خيرة ، واستعدادا طيبا ، للاقبال على الله : فمنحه وده ، وغمره بعنايته ، وأخذ فى تربيته تربية تؤهله ليكون خليفته من بعده .

وحدث فى « تونس » ، سوء التفاهم بين الشاذلى ، وقاضى

القضاة ابن البراء ، هذا الخلاف الذى سبق أن فصلناه فى كتابنا عن « المدرسة الشاذلية » وكانت نتيجته أن غادر الشاذلى تونس ، ميمما شطر الديار المصرية ؛ ورافقه فى هذا السفر جماعة كان على رأسهم أبو العباس ، وعن هذا السفر يقص أبو العباس القصتين التاليتين ، نرويهما لما فيهما من بيان لبعض مناحى أبى الحسن ، فى التوجيه ، والتربية اللذين أثمرا ثمرا ناضجا ، هو أبو العباس ، وزملاؤه :

١ ــ قال الشيخ أبو العباس : كنت مع الشيخ فى السفر ، ونحن قاصدون الاسكندرية حين مجيئنا من الغرب ، فأخذنى ضيق شديد ، حتى ضعفت عن حمله ، فأتيت الى الشيخ أبى الحسن فلما أحس بى قال : أحمد ، قلت : نعم يا سيدى ، قال : آدم خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه جنته ، ثم نزل به الى الأرض ، والله ما أنزل الله آدم الى الأرض لينقصه ، ولكن نزل به الى الأرض ليكمله ، ولقد أنزله الى الأرض من قبل أن يخلقه ، بقوله : « انى جاعل فى الأرض خليفة » ، ما قال فى السماء ، ولا فى الجنة ، فكان نزوله الى الأرض ، نزول كرامة ، لا نزول اهانة ، فانه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف ، فأنزله الى الأرض ليعبده بالتكليف ، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفتــــه .

وأنت أيضا لك قسط من آدم ، كانت بدايتك فى سماء الروح فى جنة التعريف فأنزلت الى أرض النفس لتعبده بالتكليف ، فاذا توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة .

وزال ضيق أبى العباس ، وانشرح صدره .

٢ ــ ويقول أبو العباس أيضا : لما قدمنا من الغــــرب الى الاسكندرية ، نزلنا عند عمود السوارى من ظاهرها ، وكان دخولنا عند اصفرار الشمس ، وكانت بنا فاقة وجوع شديد فبعث الينا

رجل من عدول الاسكندرية بطعام ، فلما قيل للشيخ عنه قال : لا يأكل أحد منه شيئا ، فبتنا على ما نحن عليه من الجوع ، فلما كان عند الصبح صلى بنا الشيخ وقال : مدوا السماط ، وأحضروا ذلك الطعام . ففعلوا ، وتقدمنا فأكلنا . فقال الشيخ : رأيت فى المنام قائلا يقول : أحل الحلال ما لم يخطر لك ببال ، ولا سألت فيه أحدا من النساء والرجال .

واستمر أبو العباس مع الشاذلى يسير فى ضوء تربيته ، وينهج طريقه لا يحيد عنه قيد شعرة الى أن كانت وفاة الشاذلى .

لقد بشر الشاذلى بأنه سيموت ويدفن بأرض لم يعص الله عليها قط ، فلما كان فى طريقه الى الحج ووصل الى حميترة(١) ، وقد خيم الركب للمبيت : جمع أصحابه وأوصاهم بأشياء وأوصاهم بحزب البحر ، وقال لهم : حفظوه لأولادكم ، فان فيه اسم الله الأعظم . وخلا بأبى العباس المرسى وحده رضى الله عنهما وأوصاه بأشياء ، واختصه بما اختصه الله به من البركات .

وقال لأصحابه : اذا أنا مت فعليكم بأبى العباس المرسى :

فانه الخليفة من بعدى ، وسيكون له بينكم مقام عظيم ، وهو باب من أبواب الله سبحانه . يقول صاحب كتاب « درة الأسرار » نقلا عن نجل الشيخ أبى الحسن : وبات تلك الليلة متوجها الى الله سبحانه ، ذاكرا ، أسمعه يقول : الهى ، الهى .

---

(١) يقول صاحب تاج العروس : حميترة ، بضم ففتح ، أهمله الجماعة ، وهو (ع بصحراء عيذاب) بالصعيد الأعلى بينه وبين الأقصرين يومان للمجد ، به قبر امام الطائفة سيدنا القطب أبى الحسن على بن عمر الشاذلى ، قدس الله سره ، ونفعنا ببركاته . وهو محل منقطع على غير طريق ، ويقال فيه أيضا ، حميترا بالألف ، ومن أقوال دفينة المذكور لتلميذه أبى العباس المرسى حين سأله عن حكمة أخذ الفأس والحنوط والكفن : فى حميترا سوف ترى .

فلما كان السحر سكن فظننا أنه نام ، فحركناه فوجدناه ميتا ، رحمه الله .

واستدعينا سيدى أبا العباس المرسى ، فغسله وصلينا عليه ، ودفناه بحميترة وهذا الموضع ببرية عيذاب ، فى واد على طريق الصعيد .

يقول صاحب « درة الأسرار » : وقد شربت من مائها ، وزرت ضريحه ، ورأيت له البركات نفع الله به فى الدنيا والآخرة .

قال : ولما دفناه ، اختلف أصحابه فى الرجوع ، أو التوجه ، فقال لهم سيدى أبو العبـــاس : الشيخ أمرنى بالحج ووعدنى بكرامات ، وتوجهنا ، ورأينا تهوينا ، وبركات ، ورجعنا صحبته .

ومما حدث لهم أثناء سفرهم الى الحج ما حدث به أبو العباس، قال : سافرنا مع الشيخ رضى الله عنه : فى السنة التى توفى فيها ، فلما كنا عند اخميم ، قال لى الشيخ : رأيت البارحة كأنى فى جلبة ، وأنا فى البحر والرياح قد اختلفت والأمواج قد تلاطمت ، والمركب قد انفتح وأشرفنا على الغرق ، فأتيت الى جانب المركب وقلت : أيها البحر ، ان كنت أمرت بالسمع والطاعة لى فالمنة لله السميع العليم ، وان كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العــزيز الحكيم ، فسمعت البحر يقول : الطاعة الطاعة .

فلما سافرنا ، وتوفى الشيخ رضى الله عنه ، ودفناه بحميترا من صحراء عيذاب ، وكنا فى جلبة فلما صرنا فى وسط البحر ، اختلفت الأمواج ، وتلاطمت الرياح ، وانفتح المركب ، وأشرفنا على الغرق ، ونسيت كلام الشيخ ، فلما اشتد الأمر ، ذكرت ذلك . فأتيت الى جانب المركب وقلت : أيها البحر ان كنت أمرت بالسمع واطاعة لأولياء الله فالمنة لله السميع العليم ما قلت كما قال الشيخ بالسمع والطاعة لى ، وان كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العزيز

الحكيم ، فسمعت البحر يقول: «الطاعة الطاعة ، وسكن البحر وطاب السفر » أ هـ . وظهر أبو العباس من بعد الشاذلى ظهورا عظيما ، وظهرت له كرامات كثيرة (١) أ هـ .

على أنه كان يبدو واضحا من مواقف أبى الحسن مع أبى العباس ومن حديثه عنه أنه كان يعده للخلافة ، بل لقد أقامه فيها بصورة تشبه أن تكون صريحة حينما استدعاه ، وقال له : يا أبا العباس ، تكلم بين الناس ؟ فجلس فى جامع العطارين بالاسكندرية فعاصره بالكلام والتدريس والدعوة الى الله عن اذنه وبأمر منه ، وحمل أبو العباس لواء الدعوة الى الله طيلة حياته ، متفانيا فيها ، باذلا كل ما يستطيع فى سبيلها حتى انتهت به الحياة، راضيا عن الله ، مرضيا عنه من الله ، وكان ذلك فى الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٥ هـ ـ ١٢٨٧ م ، وكان يبلغ تقريبا سبعين عاما ، رحمه الله رحمة واسعة .

من كراماته :

وقد ذكر له صاحب كتاب جامع كرامات الأولياء : العارف بالله الشيخ يوسف النبهانى عدة كرامات ، نقتصر منها على ما يلى ، يقول :

من كراماته رضى الله عنه : أنه كان يقول :

لى أربعون سنة ما حجبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو حجبت عنه طرفة عين ما عددت نفسى من جملة المسلمين .

ومن كراماته ، أنه قال : وأما الخضر عليه السلام ، فهو حى وقد صافحته بكفى هذه وأخبرنى أن كل من قال : كل صباح :

---

(١) درة الأسرار .

اللهم اغفر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم أصلح أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم تجاوز عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم اجعلنا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، صار من الأبدال .

فعرض بعض الفقراء ذلك على الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، فقال : صدق أبو العباس (١) .

وقال المرسى أيضا :

«وقد دخل على الخضر عليه السلام مرة وعرفنى بنفسه ، واكتسبت منه معرفة أرواح المؤمنين بالغيب هل هى معذبة أو منعمة ، فلو جاءنى الآن ألف فقيه يجادلونى فى ذلك ، ويقولون بموت الخضر ما رجعت اليهم .

ومنها : أن السلطان يعقوب ، أمر بذبح دجاجة ، وخنق أخرى ، وطبخهما ، وقدمهما اليه ، وجلس معه ليأكل ، فلما نظر الشيخ أبو العباس اليهما ، أمر الخادم برفع المخنوقة ، وقال : هذه جيفة ، وقال : لولا تنجس الأخرى بالمرق النجس لأكلت منها ، قاله الشعرانى ، قال المناوى : وقدم اليه رجل طعاما فيه شبهة يمتحنه، فرده وقال : كان المحاسبى ، اذا مد يده الى طعام فيه شبهة ضرب عرق بأصبعه فأنا فى يدى ستون عرقا تضرب .

ومن كراماته التى انفرد بها عن غالب الأولياء تسليكه لنحو ثلاثين قاضيا ، وكان يقول العرشى :

ليس الشأن أن تسلك كل يوم ألفا من العوام ، بل أن تسلك فقيها واحدا فى مائة عام .

---

(١) المرجع : كتاب جامع كرامات الأولياء ، تأليف يوسف بن اسماعيل النبهانى ، الجزء الأول ص ٥٢٠ وما بعدها .

وقال شيخنا ، الشيخ حسن العــدوى ، على شرح البردة البوصيرية ، قال بعضهم :

صليت خلف الشيخ أبى العباس فشهدت الأنوار ملأت بدنه ، وانبثقت من وجوده ، حتى انى لم أستطع النظر اليه .

مات سنة ٦٨٦ هـ بالاسكندرية ، رحمه الله أهـ .

ومع ذلك فقبل أن ننتهى من الكرامات نقول انه رضى الله عنه كان يقول هذه الكلمة المخلصة :

«والله ما جلست حتى جعلت جميع الكرامات تحت سجادتى» .

المربى

والسمة التى نتحدث عنها أولا باعتبارها عنصرا من أهم عناصر شخصية أبى العباس ، انما هى سمة المربى :

ان كبار المشايخ من كبار المربين ، ولولا هذا لما كان لهم مدارس ، ولما تأتى أن يصلوا بالمريد الى الله ، ولقد قال أبو الحسن رضى الله عنه لزكى الدين الأسوانى :

يا زكى عليك بأبى العباس فوالله انه ليأتيه البدوى يبول على ساقيه ، فلا يمسى عليه المساء ، الا وقد وصله بالله .

ولقد كان رضى الله عنه يتفقد المريدين ، ويتتبع أحوالهم بالهام من الله ، وبفراسة المؤمن ، وبسؤالهم عن أحوالهم ، وكان يقول : « ينبغى للمشايخ تفقد حال المريدين » .

لقد كان يتفقد أحوالهم ، ويسأل عنهم اذا غابوا ، وفى مرة قال لبعض أصحابه :

لم تنقطع عنى ؟ ، قال : يا سيدى استغنيت بك .

فقال الشيخ : ما استغنى أحد بأحد ، ما استغنى أبو بكر برسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولم ينقطع عنه يوما واحدا .

ويقول للمريدين : يجوز للمريدين أخبار الأستاذ بما فى بواطنهم .

ويعلل ذلك بما معناه : ان الأستاذ كالطبيب ، وحال المريد

كحال المريض والمريض يكشف كل شيء للطبيب ، ولا يخفى عنه شـــيئا .

وفى الحقيقة كل مريد رأى له سرا يخفيه عن شيخه ، فانه أجنبى عنه ، لم يتحد به .

ويروى ابن عطاء الله السكندرى ما يلى : « كنت قلت لبعض أصحاب الشيخ أريد لو نظر الى الشيخ بعنايته ، وجعلنى فى خاطره ، فقال ذلك للشيخ : فلما دخلت على الشيخ ــ رضى الله عنه ــ قال : لا تطالبوا الشـــيخ بأن تكونوا فى خاطره بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ فى خاطركم ، فعلى مقدار ما يكون الشيخ عندكم ، تكونون عنده ، ثم قال : أى شيء تريد أن تكون ؟ والله ليكونن لك شأن ..

ومن دقته فى مراعاة الكرامة الانسانية للمريدين ، أنه كان يكره للأشياخ اذا جاءهم مريد أن يقولوا له : قف ساعة ، ويقول : ان المريد يأتى الى الشيخ بهمته المتوقدة ، فاذا قيل له ، قف ساعة ، طفىء ما جاء به .

ومع ذلك فان للشيخ حسبما يرى أستاذنا ، أن يطالب المريد ، ما دام قاصرا ، عن حقيقة دعواه ، ولا يستمر فى ذلك الى الأبد ، ولكن اذا بلغ المريد مبلغ الرجال ، لم يطالبه شيخه ببرهان على دعواه ، وذلك لخروجه عن مقام التلبيس .

وكان رضى الله عنه ، اذا رأى مريدا دخل فى أوراد بنفســه وهواه ، أخرجه منها ، وكان يحب دائما اخراج المريدين عن هواهم ، ويقول لهم مثلا :

من أحب الظهور ، فهو عبد الظهور ، ومن أحب الخفاء ، فهو عبد الخفاء ، ومن كان عبدا لله ، فسواء عليه أظهره أو أخفاه .

ولأجل اخراج المريدين دائمـــا عن هواهم يقص عليهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمع أبا بكر يقرأ ، ويخفى صوته ، وسمع عمر يقرأ ، ويرفع صوته ، فقـال لأبى بكر : لم خفضت صوتك ؟ ، فقال : قد أسمعت من ناجيت .

وقال لعمر : لم رفعت صوتك ؟ ، فقال : لأوقظ الوسنان ، وأطرد الشيطان .

فقال لأبى بكر : ارفع قليلا ، وقال لعمر اخفض قليلا .

قال الشيخ رضى الله عنه : أراد أن يخرج كلا منهما عن ارادته لنفسه ، لمراد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ له .

ويتأسى الشيخ رضى الله عنه ، برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيخرج المريدين دائما عن هواهم ، واذا رأى مريدا يفتخر بزهده فى الدنيا يقول له :

يا أخى لقد عظمت الدنيا حين رأيت لها وجوداً ، حتى زهدت فيها ، فقدرها أصغر من ذلك .

ومما يتصل عادة بالظهور ، والفخر ، أمران :

الأمر الأول : هو السلوك فى الزى ، وفى المأكل والمشرب ، ان بعض المنتمين الى التصوف يحبون المرقعات ، وغليظ الطعـام والشراب ، وقد كان الشيخ أبو العباس يصادف رغبة من بعض المريدين فى ذلك ، فماذا كانت سياسته فى هذا ؟ وما هو رأى المدرسة الشاذلية على وجه العموم فى ذلك ؟

يقول ابن عطاء الله : طريقة الشيخ أبى العبـــاس ، وشيخه أبى الحسن رضى الله عنهما ، وطريقة أصحابهما ، الاعراض عن لبس زى ينادى على سر اللابس بالافشاء ، ويفصح عن طريقـه بالابداء ، ومن لبس الزى فقد ادعى .

ويقول أبو العباس معبرا عن رأى شيخه ، وعن اتباعه له : دخلت على الشيخ أبى الحسن وفى نفسى أن آكل الخشن وألبس الخشن ، فقال لى الشيخ : يا أبا العباس ، اعرف الله وكن كيف شئت .

ويروى أبو العباس أيضا فى ذلك أنه : دخـــل على الشيخ أبى الحسن فقير وعليه لباس من شعر ، فلما فرغ الشيخ من كلامه دنا من الشيخ ، وأمسك بملبسه وقال : يا سيدى ما عبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك ؟

فأمسك الشيخ ملبسه فوجد فيه خشونة فقال : ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك ، لبـــاسى يقول : أنا غنى عنكم ، فلا تعطونى ، ولباسك يقول : أنا فقير اليكم فأعطونى .

ويعقب على ذلك ابن عطاء الله فيقول : ولا تفهم رحمك الله أنا نعيب بهذا القول على من لبس زى الفقراء ، بل قصدنا أنه لا يلزم كل من كان له نصيب مما للقوم أن يلبس ملابس الفقراء ، فلا حرج على اللابس ولا على غير اللابس ، اذا كان من المحسنين .

« ما على المحسنين من سبيل » .

وأما لبس اللباس اللين ، وأكل الطعام الشهى ، وشرب الماء البارد ، فليس القصد اليه بالذى يوجب العتب من الله ، اذا كان معه الشكر لله .

وقد قال الشيخ أبو الحسن : يا بنى برد المـــاء ، فانك اذا شربت الماء السخن فقلت الحمد لله ، تقولها بكزازة ، واذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله ، استجاب كل عضو منك بالحمد لله .

والأصل فى هذا ، قول الله سبحانه حكاية عن موسى عليـــه السلام : « فسقى لهما ثم تولى الى الظل ، فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير » .

ألا ترى كيف تولى الى الظل قصدا لشكر الله تعالى ، على ما ناله من النعمة .

أما الأمر الثانى :

ــ مما يتصل عادة بحب الظهور ــ فهو اظهار الوجد أثنـاء السماع ، وهو ظاهرة توجد عادة فى المبتدئين ، وعلى الخصوص فى أرباب الأحوال .

وكان أبو العباس يقول فى ذلك : الكامل من يملك حاله ، ويتحدث أبو العباس عن اختلاف المتصوفة بالنسبة للحـال ، ويقسمهم الى نوعين ، فيقول :

عبد هو فى الحال بالحال .

وعبد هو فى الحال بالمحول .

فالذى هو فى الحال بالحال ، هو عبد الحال .

والذى هو فى الحال بالمحول ، هو عبد المحول .

وأمارة من هو فى الحال بالحال ، أن يتأسف عليها اذا فقدها ، ويفرح بها اذا وجدها .

والذى هو فى الحال بالمحول ، لا يفرح بها اذا وجـدها ، ولا يحزن عليها اذا فقـدها ، ويشرح ذلك المعنى ابن عطاء الله السكندرى فيقول :

ومعنى كلام الشيخ هذا ، أن من تحقق بالله ملك الأشياء ، ولم تملكه ، فيصير الحال تحت قهر تصريفه ، وانما يكون ذلك للرجل ، لرسوخه فى العلم بالله ، والعلم حاكم على الحال ، وبه يوزن ، والحال انما هو فرع من فروع العلم ، والعلم قار ثابت ، والحال لا بقاء لها ، لذلك قالوا :

لو لم تحل ما سميت حـالا
وكل ما حـــال فقـــد زال

انظر الى الظـل اذا ما انتهى
يأخـــذ فى النقص اذا طـال

والأكابر ملكهم الله أحوالهم ، وجعلهم حاكمين عليها ، ومن هنا لما قيل للجنيد ما لنا نرى المشايخ يتحركون فى السماع ، وأنت لا تتحرك ، فقال رضى الله عنه : « وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهى تمر مر السحاب » .

وقيل لبعضهم مالك لا تتحرك فى السماع ، فقال : انه اذا كان فى الجمع كبير احتشمت منه ، فأمسكت على وجدى ، فاذا خلوت وحدى ، أرسلت على وجدى ، فتواجدت .

فانظر كيف كان زمام حاله معه : يمسكها اذا شاء ، ويطلقها اذا شاء ، واذا اتسع القلب بمعرفة الله قيد الواردات ، وانما يبدو أثر الحال على من ضاق عن وسعها ، والعارف له وسع المعرفة .

فاذا ورد الوارد عليه غرق فى وسع معرفته ، وهل رأيت بحرا فاض بمطر سحاب ؟ ، ولهذا جهلت أحوال الأكابر ، أرباب المقامات، واشتهر أهل الأحوال لظهور آثار المواهب عليهم ، لضعفهم عن كتمها ، ولضيقهم عن وسعها ، فربما كان صاحب الحال أحظى باقبال الخلق من صاحب المقام ، وبينه ، وبينه ، مثل ما بين السماء والأرض .

وكلما تمكن الرجل فى العلوم الالهية ، والمعـــارف الربانية استغرب فى هذا العالم ، فيقل من يعرفه ، ويفقد من يحيط به ، ومن أجل ذلك يوجه أبو العباس ملاحظة تلاميذه قائلا :

لن يصل الولى الى الله تعالى ، حتى تنقطع عنه شهوة الوصول الى الله تعالى ويفسر ذلك الامام الشعرانى فيقول :

أى انقطاع أدب ، لا انقطاع ملل : لغلبة التفويض على قلبه .

وهو رضى الله عنه يتابع فى ذلك شيخه أبا الحسن الذى يقول : لن يصل الولى الى الله تعالى ، حتى تنقطع عنه شهوة الوصول الى الله .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه :

لن يصل الولى الى الله ، ومعه شهوة من شهواته ، أو تدبير من تدبيراته ، أو اختيار من اختياراته .

ويفسر ذلك الامام ابن عطاء الله فيقول :

ومعنى كلام الشيخ رضى الله عنه ، لن يصل الولى الى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول الى الله ، أى انقطاع أدب لا انقطاع ملل ، فانه يغلب عليه التفويض الى الله وشهود حسن الاختيار منه ، فيلقى القيادة اليه ، ويترك نفسه مسلما بين يديه ، فلا يختار مع مولاه شيئا ، لعلمه بما فى الاختيار مع الله من الآفات :

ولنا فى هذا المعنى من قصيدة ذكرناها فى كتاب التنوير :

وكن عبده وألق القيـــاد لحكمه
وايـــاك تدبيرا فمـــــا هو نافـــع
أتحكم تدبيرا وغـــيرك حـــاكم
أأنت لأحـــكام الاله تنـــــازع
فمحـــو ارادات وكل مشـــيئة
هو الغرض الأقصى فهل أنت سامع ؟

كذلك ســـار الأولـــون فأدركـوا
عـــلى أثرهـم فليمش من هو تابع

وما من شك فى أن ابن عطاء الله يقصد أن يكون الجزم القلبى ، واليقين النفسى انما هو التفويض لله سبحانه ، فليس مع تدبير الله تدبير ، ولا مع ارادته ، ارادة ، ولا يتنافى هذا مع اتخاذ الأسباب ، فقد قال الله سبحانه وتعالى :

« خذوا حذركم » .

وقال سبحانه :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

ولقد كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يحكم الأمر احكاما ، وكان من قبل احكام الأمر ، وفى أثناء احكامه ، ومن بعد احكامه ، مفوضا كل أموره الى الله ، موقنا بأنه سبحانه فعـــال لما يريد .

لابد اذن — مع اتخاذ الأسباب — من التبرى من الحول ومن التفويض الى الله ، وكان أبو العباس يحاول تثبيت ذلك فى أذهان مريديه بكل الوسائل ، فيقص عليهم مثلا : قصة « سمنون المحب »، لقد قال :

وليس لى فى ســـواك حـظ
فكيفما شـــئت فاختبرنى

فابتلى بحصر البول ، واشتد به الأمر ، فصبر ، ثم لم يصبر على الصبر ، فأظهر الألم ، وصاح ، وصار يمر على الصبيان ، والناس ، ويقول :

ادعوا لعمكم الكذاب .

يقص الشيخ قصته ، ثم يقول :

لو كان سمنون ، عوض ما قال : فكيفما شئت فاختبرنى ، قال : فاعف عنى ، لكان أولى من طلب الاختبار .

وانما وقع الامتحان لسمنون ، لغفلته عن التبرى من الدعوة ، فلو قال : مدنى بالقوة ، ثم اختبرنى بما شئت ، لم يمتحنه .

وكان رضى الله عنه يقول للمريدين : اذا قيل لك أتخاف الله تعالى ؟ فقل نعم ، لكن بقدر ما خلقه فى من الخوف ، وكذلك القول فى : أتحب الله تعالى ، فمن سلك ذلك ، لا يقع له امتحان ، لتعويله على الله تعالى ، لا على قوة نفسه هو وقد قالوا : كل مدع ممتحن ، وهذا ميزانه ، والله أعلم .

وكان يحدث المريدين بكثير من مناحى تربية أبى الحسن له ، فيقول لهم مثلا :

دخلت يوما : على الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه فقال لى : ان أردت أن تكون من أصحابى فلا تسأل أحدا شيئا ، وان أتاك شىء من غير مسألة ، فلا تقبله ، فقلت فى نفسى : كان النبى — صلى الله عليه وسلم — يقبل الهدية ، وقال : ما أتاك من غير مسألة فخذه .

فقال الشيخ : كأنك تقول : كان النبى — صلى الله عليه وسلم — يقبل الهدية ، وقال : وما أتاك من غير مسألة فخذه ؟ ، النبى صلى الله عليه وسلم — قال الله فى حقه :

« قل انما أنذركم بالوحى » .

متى أوحى الله اليك ؟ :

ان كنت مقتديا به فى الأخذ فكن مقتديا به فى كيفية الأخذ ، كان صلى الله عليه وسلم لا يأخذ شيئا الا ليثيب من يعطيه ، ويعوضه عليه ، فان تطهرت نفسك ، وتقدست هكذا ، فاقبل ، والا فلا .

ومما يسير فى نسق مع القصة السابقة ، ما أخبر به الشيخ الصالح ياقوت الحبشى بمدينة الاسكندرية فى عام خمسة عشر وسبعمائة ، وكان من أصحابه ، وخدامه ، قال :

كنت أتعبد فى مسجد بخارج الاسكندرية فبقيت فيه مواصلا أياما ، فأصابنى الجوع ، فدخلت الاسكندرية ، قاصدا الشيخ ، فوجدت فى طريقى درهما ، فأردت أن أشترى به خبزا ، واداما ، فرأيت فى السوق زبيبا طيبا ، وكنت أعلم أنه يحبه ، لأنه من بلاد الأندلس ، وهو كثير ببلاده ، قال : فاشتريت به زبيبا ، وآثرته على نفسى .

وقصدت اليه ، فوجدته جالسا فى القلعة لأنه كان يسكنها بعد الشيخ . قال : فوضعت الزبيب بين يديه ، وجلست ساعة ، وأردت أن أقوم فقال لى : اجلس ، قال : فجلست ، واذا برجل وصل اليه بمائدة فيها كبش سمين مشوى ، ورقاق طيب ، فقال لى : هذا فتوحك ، لما آثرتنى على نفسك ، وأنت جائع ، فكل ، فأكلت وحدى حتى تمليت(١) ، ثم أمر الفقراء بأكله ، وقال لى : ارفع الزبيب ، وتصدق به ، فانا لا تباح لنا اللقطة .

ومما يتصل بذلك ، أنه كان يقول للمريدين : من اشترى زيتا

---

(١) أى شبعت .

من بياع ، فلما فرغ ، قال له : زدنى ، فزاده خيطا ، فدينه أرق من ذلك الخيط .

ومن اشترى فحما فلما فرغ قال له : زدنى ، فزاده فحمة ، فقلبه أسود من تلك الفحمة ، وقد أتفق رضى الله عنه مع أستاذه أبى الحسن على ميزان الصدق للمريد ، يزن به نفسه : يقول رضى الله عنه : سمعت الشيخ أبا الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول : من ثبتت ولايته من الله تعالى لا يكره الموت ، وهذا ميزان المريدين ، ليزنوا به نفوسهم ، اذا ادعوا ولاية الله ، فان من شأن النفوس وجود الدعوة للمراتب العالية ، من غير أن يسلك السبيل الموصل اليها ، قال تعالى :

« فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » .

ولم ينس الشيخ رضى الله عنه ، أن ينبه المريدين الى فضائل معينة ليلتزموها فى أنفسهم ، ولتكون أساسا يرشدهم الى صداقة من يتحقق بها ، يقول رضى الله عنه : قال لى شيخى : لا تصحب الا من تكون فيه أربع خصال :

الجود من القلة .

والصفح عن المظلمة .

والصبر على البلية .

والرضا بالقضية .

ونذكر فى النهاية بعض أمثلة مما كان من توجيهات الشيخ لابن عطاء الله السكندرى ، لقد ذكرنا فيما مضى بعضا منها ، ونذكر الآن ما يلى : —

يقول ابن عطاء الله : وسمعته يقول : أريد أن استنسخ كتاب التهذيب ، لولدى جمال الدين ، فذهبت أنا ، فاستنسخته ، من

غير أن أعلم الشيخ وأتيته بالجزء الأول ، فقال : ما هذا ؟ ، قلت : كتاب : التهذيب ، استنسختة لكم ، فأخذه. فلما نهض ليقوم قال : اجعل فى بالك ، أن الولى لا يتفضل عليه أحد ، تجد هذا ان شاء الله فى ميزانك ، فلما أتيته بالجزء الثانى ، لقينى بعض أصحابه ، بعد نزولى من عنده ، وقال : قال الشيخ عنك : والله لأجعلنه عينا من عيون الله ، يقتدى به فى العلم الظاهر ، والباطن ، فلما أتيته بالجزء الثالث ، ونزلت من عنده لقينى بعض أصحابه ، وقال : طلعت عند الشيخ فوجدت عنده مجلدة حمراء ، فقال : هذا كتاب استنسخه لى ابن عطاء الله ، فوالله ما أرضى له بجلسة جده ، ولكن بزيادة التصوف .

وأخبرنى بعض أصحابه قال : قال الشيخ يوما : اذا جاء ابن عطاء الله فقيه الاسكندرية فأعلمونى به ، فلما أتيت ، أعلمنا الشيخ بك ، فقال : تقدم ، فتقدمت بين يديه ، ثم قال : جاء جبريل عليه السلام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه ملك الجبال حين كذبته قريش ، فقال له جبريل عليه السلام : هذا ملك الجبال ، أمره الله أن يطيع أمرك فى قريش ، فسلم عليه ملك الجبال ، وقال : يا محمد : ان شئت ، أطبق عليهم الأخشبين ، فعلت ؟ فقال : رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لا ، ولكن أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يوحد الله ، ولا يشرك به شيئا ، فصبر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رجاء من يخرج من أصلابهم ، كذلك صبرنا على جد هذا الفقيه ، لأجل هذا الفقيه .

وأخبرنى سيدى جمال الدين ، ولد الشيخ قال : قلت للشيخ : هم يريدون يصدرون ابن عطاء الله فى الفقه ، فقال الشيخ :

هم يصدرونه فى الفقه ، وأنا أصدره فى التصوف ، ودخلت أنا عليه فقال لى : اذا عوفى الفقيه ناصر الدين يجلسك فى موضع

جدك ويجلس الفقيه من ناحية ، وأنا من ناحية ، وتتكلم ان شاء الله في العلمين فكان ما أخبر به رضى الله عنه .

وخرجت يوما من عند الفقيه مكين الدين الأسمر رضى الله عنه ، وخرج معى أبو الحسن الجزيرى ، وكان من أصحاب الشيخ أبى الحسن ، فسلمت عليه ، فسلم على ببشاشة ، واقبال ، فقلت له : من أين تعرفنى ؟ فقال : وكيف لا أعرفك ؟ ، كنت يوما جالسا عند الشيخ أبى العباس ، وكنت أنت عنده ، فلما نزلت قلت له : يا سيدى : انه ليعجبنى هذا الشاب انقطع فلان ، وفلان عن الملازمة ، وهذا الشاب ملازم ، قال : فقال الشيخ أبو العباس : **لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعيا يدعو الى الله ، فكان كما** قال الشيخ ، ولله الحمد .

وكان رضى الله عنه ، يلقن للوسواس : سبحان الملك الخلاق ، **ان يشأ يذهبكم ، ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز .**

وعملت فيه قصيدة أمدحه بها سيأتى ذكرها ان شاء الله آخر الكتاب ، فقال حين أنشدت : أيدك الله بروح القدس ، ثم عملت قصيدة باشارته جوابا لقصيدة مدحه بها انسان من بلاد اخميم ، وسيأتى ذكرها أيضا آخر الكتاب ان شاء الله تعالى ، فلما قرأت عليه قال : هذا الفقيه صحبنى وبه مرضان ، وقد عافاه الله منهما ، ولابد أن يجلس ، ويتحدث فى العلمين يشير الشيخ الى مرض الوسوسة ، فلقد انقطع عنى ببركة الشيخ حتى صرت أخاف أن أكون لشدة التوسعة التى أجدها قد تساهلت فى بعض الأمور ، والمرض الآخر كان بى ألم برأسى ، فشكوت ذلك اليه ، فدعا لى ، فعافانى الله ، وشفانى .

وبت ليلة من الليالى مهموما ، فرأيت الشيخ فى المنام ، فشكوت اليه ما أنا فيه ، فقال : أسكت ، والله لأعلمنك ، علما عظيما ، فلما استيقظت ، أتيت الى الشيخ رضى الله عنه ، فقصصت عليه الرؤيا ، فقال : **هكذا تكون ان شاء الله .**

وقدم يوما من السفر ، فخرجنا للقائه ، فلما سلمت عليه ، قال : يا أحمد كان الله لك ، ولطف بك ، وسلك بك سبيل أوليائه ، وبهاك بين خلقه فلقد وجدت بركة هذا الدعاء ، وعلمت أنه لا يمكنني الانقطاع عن الخلق ، وأني مراد بهم لقوله « وبهاك بين خلقه » أهـ .

لقد ذكرنا كل ذلك فى صلة الشيخ بابن عطاء الله لنذكر صورة قريبة من الواقع فى الارتباط الوثيق بين الشيخ ومريديه ، وهذه الصورة هى التى نضعها مثالا وضاء لأئمة التصوف مع مريديهم ، لقد كان رضى الله عنه :

(أ) يتفقد حال المريدين ، ويسألهم عما ظهر من أحوالهم وعما خفى .

(ب) وكان يخرجهم عن هواهم ، ويتحرى أن يصرف عنهم حب الظهور سواء أكان ذلك عن طريق لبس المرقعات ، أم عن طريق غيرها .

(جـ) وكان رضى الله عنه يوجههم الى أن يسموا بهممهم الى معالى الأمور متسامين عن صغارها .

(د) وكانت تربيته جماعية ، وفردية : أى أنه كان يتحدث عن أمراض عامة ، ولا يقتصر على ذلك بل يعالج كل فرد بما يتناسب مع مرضه الخاص .

لقد كان مربيا كاملا .

العـــالم

كان أبو الحسن الشاذلى ، مدرسة علمية ، نهل منها كل من اتصل به على حسب استعداده ، ولقد كان مدرسة علمية متكاملة ، أى كان مدرسة للظاهر من العلوم ، وللباطن منها ، فقد كان يدرس، ويفتى على الوضع الظاهر ، وكان يدرس ، ويفتى على الوضع الذوقى الصوفى ، وما كان فى ذلك متناقضا ، لأنه لا تعارض بين الشريعة ، والحقيقة « وعلمنا هذا مشيد على الكتاب والسنة » ، كما يقول الجنيد ، رضى الله عنه .

وأخذ عنه أهل الظاهر ، كل على حسب استعداده ، وأخذ عنه الصوفية كل على حسب استعداده ، وورثه فى كلتا الناحيتين ، أبو العباس المرسى .

ورجال المدرسة الشاذلية يعرفون أنه ــ رضى الله عنه ــ هو الذى بث علوم الشيخ أبى الحسن ــ رضى الله عنه ــ ونشر أنوارها ، وأبدى أسرارها .

ولقد كان رضى الله عنه ، لا تتحدث معه فى علم من العلوم ــ كما يقول ابن عطاء الله ــ الا تحدث معك فيه ، حتى يقول السامع انه لا يحسن غير هذا العلم ، لا سيما علم الحديث ، والتفسير ، وكان يقول :

شاركنا الفقهاء فيما هم فيه ، ولم يشاركونا فيما نحن فيه .

وكان له فى العلوم الظاهرة كتب معينة ، يؤثرها ، ويداوم مذاكرتها وتدريسها :

١ ـ ففى اصول الدين : كان كتابه : الارشاد ، وهو كتاب فى التوحيد ، والجدل ، والنقاش ، والانتصار لمذهب الأشاعرة، وأهل السنة ، لا يسهل تناوله على العاديين من الناس ، بل ولا على كثير من المثقفين ، لأنه يحتاج الى ممارسة طويلة فى علم الكلام ، والجدل .

٢ ـ وكان كتابه فى الحديث : المصابيح ، وهو كتاب على غرار كتاب « الترغيب والترهيب » وعلى غرار ، رياض الصالحين ، وان كان أوسع منه ، ألفه الامام البغوى الذى كان من كبار الفقهاء فى المذهب الشافعى ، وكانت وفاته بمرو الروذ سنة ٥١٦ هـ .

٣ ـ أما فى الفقه : فكان يعنى بكتاب التهذيب ، وكتاب الرسالة ، وهما كتابان فى الفقه مشهوران .

والفقيه فيما يرى الشيخ : هو من انفقأ الحجاب عن عينى قلبه ، وشاهد ملكوت ربه . ومع ذلك فان علوم المعاملة هذه ـ على حد تعبير الصوفية ـ ما كان رضى الله عنه يتنزل اليها الا فى الزمن اليسير ، وبحسب الضرورة فقط .

٤ ـ وكتابه فى التفسير هو الكتاب المفضل عند شيخه أبى الحسن ، وهو كتاب : المحرر الوجيز لابن عطية .

ووصل به الأمر بعلوم الوسائل ـ أى النحو ، وأشباهه من العلوم ، التى ليست فى نفسها غايات ـ أن قد كان يقرأ عليه بعض المغرقين فى العربية فيرد عليهم اللحن .

٥ ـ أما فى التصوف : فقد كانت كتبه المفضلة هى :

١ ــ الرسالة القشيرية ، وما كانت الرسالة القشيرية الا سلما يصعد عليه لينشر من اشراقاته هو ، والقصة التالية توضح طريقته فى كيفية أخذه للرسالة القشيرية فى التدريس :

يروى صاحب كتاب درة الأسرار ، حدثنى الشيخ الصالح العالم المفتى جمال الدين يوسف بن الشيخ المقدس المرحـــوم أبى محمد عبد الكريم الواداشى المالكى المعروف بالعرامى ، بمدينة القاهرة حماها الله تعالى ، فى أوائل جماد الآخرة عام ســـتة عشر وسبعمائة ، قال :

كان سيدى أبو العباس نفع الله به ، لما توفى سيدنا الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه يطلع للقاهرة زمن زيادة النيل ، يقيم بمسجد بموضع يقال له : المقص بالدكة ، بخارج باب البحر من القـــاهرة .

وكان الشيخ سيدنا أبو الحسن يفعل هذا فى كل عام ، فتجتمع اليه مشايخ القاهرة ، ومصر ، ومن كل الجهات ، يتبركون به ، ويأخذون عنه العلوم العظيمة ، والأحوال الكريمة ، فبقى سيدى أبو العباس ، يقفو أثره .

حدثنى هذه الحكاية بهذا المسجد المبارك ، وفيه أعلية للسكن ، وهذا الفقيه ساكن بها ، وهو قاضى الموضع ، ومفتيه ، وفاضله قال :

فجاءه سيدى الشيخ أبو العباس على عادته فاجتمع اليه جماعة من كبراء مصر وعلمائها وقالوا له : يا شيخ ، كان سيدنا أبو الحسن رضى الله عنه ، اذا جاء لهذا الموضع يجىء الينا بمصر، ونسمع منه من مواهب الحق سبحانه ، ونتبرك بقدومه علينا ، وأنت قد أقامك الله مقامه ، فنحب أن نتبرك بكلامك ، ونتذاكر كلام الشيخ رحمه الله ، ورضى عنه ، فقال لهم ، اذا كان صبيحة غد ان شاء الله نجىء اليكم ، فلما كان فى صبيحة تلك الليلة ، أمرنا

بالمسير الى مصر ، وأمرنى أن نحمل رسالة القشيرى معنا ، فحملتها ، ووصلنا الى جامع سيدنا عمرو بن العاص فوجدناه قد امتلأ بكبار الديار المصرية وعلمائها فقال لى : منتقد ، ومعتقد .

قال : فجلسنا فى شرقى الجامع ، ثم قال لى : أخرج رسالة القشيرى ، فأخرجتها . ثم قال : اقرأ .

فقلت : وماذا أقرأ ؟ ، قال : الذى يظهر لك .

قال : ففتحت الكتاب ، فوجدت باب الفراسة ، قال : فقرأت أوائل الباب ، فلما فرغت من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لى : أغلق الكتاب ثم قال الفراسة تنقسم الى أربعة أقسام :

١ ــ فراسة المؤمنين .

٢ ــ وفراسة الموقنين .

٣ ــ وفراسة الأولياء .

٤ ــ وفراسة الصديقين .

فأما فراسة المؤمنين : فحالها من كذا ، ومددها من كذا ؛ ثم تكلم بكلام عظيم ، ثم انتقل الى :

فراسة الموقنين ، فتكلم بطبقة أعلى ، ثم قال :

وأما فراسة الولى : فمددها من كذا وحالها من كذا ، وتكلم فى ذلك بكلام موهوب ، غير مكسوب ، أدهش به قلوب الحاضرين ، واستغرق فى ذلك الى أن أذن الظهر ، والناس يبكون ، ورأيت العرق ينحدر من جبينه ، حتى سال على لحيته ، وكانت له لحية كبيرة ، فلما صحا من حاله ، قال :

وأما فراسة الصديقين : . . . .

ان الشيخ رضوان الله عليه ما كان يتخذ الرسالة القشيرية الا أساسا ينطلق منه سابحا فى بحار المعرفة الالهامية .

٢ ــ وكتاب احيــــاء علوم الدين ، من الكتب التى عنى بها الصوفية على وجه العموم . وقد كان رضى الله عنه يقول : عن شيخه أبى الحسن :

كتاب الاحياء يورثك العلم .

وكان يقول فى الامام أبى حامد الغزالى رضى الله عنه :

انا لنشهد له بالصديقية العظمى .

٣ ــ كتاب قوت القلوب : وكان يقول عن شيخه أبى الحسن : كتاب القوت يورثك النور .

وكان يقول عن شيخه أبى الحسن : عليكم بالقوت فانه قوت .

٤ ــ كتاب ختم الأولياء للحكيم الترمذى ، وهو كتاب أثار اهتمام الصوفية ، وأثار اهتمام غيرهم ، وأحدث حيوية ، وحياة ، ونقاشا فى الجو الفكرى ، والصوفى ، وحمل على المؤلف الحاملون ، ودافع عنه المدافعون ، وان كتابا يثير اهتمام الامام الكبير ابن العربى اثارة بالغة فيكتب عنه غير مرة ، لهو كتاب فذ .

لقد كان شيخنا معنيا به ، وكان شيخه معنيا به ، يقول ابن عطاء الله عن أبى العباس وشيخه رضى الله عنهما :

وكان هو والشيخ أبو الحسن ، كل منهما يعظم الامام الربانى محمد بن على الترمذى ، وكان لكلامه عندهما الحظوة التامة ، وكان يقول عنه :

انه أحد الأربعة الأوتاد .

والسبب فى ذلك ، « أن علوم هذه الطائفة ، علوم التحقيق ، وهى لا تحملها عقول عموم الخلق » ، بل لقد كان ، رضى الله عنه ، يقول :

« جميع ما فى كتب القوم عبرات دموع من سواحل بحر التحقيق » .

ولتتم الصورة عن أبى العباس نذكر أن مما يتصل بعلمه وبشخصيته أنه كان شاعرا ، وشعره ، شعر معانى ، وشعر تحليق ، فى سماء الروح ، ومن أمثلته ما يلى : ــ

لقد كتب الى بعض مريديه قائلا :

وصل الله أرواحكم ، وفسح فى غيوبه مراحكم ، فانه سألنى سائل عن شعر منظوم ، يعبر عن النفس ، وتعلقها بالبدن ، وتقيدها بالحظ ، وانبعاثها بالشهوة ، وتحققها بالجمع ، فأجبته بهذه الأبيات :

ان كنت سائلنا عن خالص المنن
وعن تعلق ذات النفس بالبدن

وعن تشبثها بالحظ مذ ألفت
أدرانها ففدت تشكو من العطن

وعن تنزلها فى حكمها ولها
علم يفرقها بالقبح والحسن

وعن بواعثها بالطبع مائلة
تهوى بشهوتها فى ظلمة الشجن

وعن حقيقتها فى أصل معدنها
لا ينثنى وصفها منها الى وثن

فاسمع هديت علوما عــز سالكها
عن العيـــان ولا يغررك ذو لسن

قصدا الى الحق لا تخفى شواهدها
قامت حقائقها بالأصـــل والفنن

يا ســائلى عن علوم ليس يدركها
ذو فكـرة بفهـــوم لا ولا فطن

لكن بنور على جــامع خمــدت
له العقــول وكل الخلق فى وسن

خذها اليك بحق لست جاهــله
والأمــر مطاع والحـق قيــدنى

عن الحقيقة خــذ علم الأمور ولا
تحجبك صورتها فى عــالم الوطن

ففطرة النفس سر لا يحيــط به
عقــل تقيــد بالأوهام والدرن

لكنها برزت بالحــكم قائمــة
حتى تألفهــا الســكان بالسكن

وكى يقــال عبيد قائمون بمــا
ألقى من الأمر قبــل الخلق والمحن

والنفس بين نزول فى عوالمهــا
كآدم وله حـــواء فى قـــرن

والروح بين ترق فى معـــارجها
وهى المواقف للتعــريف والمنن

وقال رضى الله عنه :

أطلعنى الله على الملائكة ، وهى ساجدة لآدم ، عليه السلام ، فأخذت بقسطى من ذلك ، فاذا أنا أقول :

ذاب رسمى وصح صدق فنائى
وتجلت للسر شمس ضيائى

وتنزلت فى العوالم أبدى
ما انطوى فى الصفات بعد صفائى

فصفاتى كالشمس تبدى سناها
ووجودى كالليل يخفى سوائى

أنا معنى الوجود أصلا وفصلا
من رآنى فساجد لبهائى

أنا نور لأهله مستبين
أشهدونى فقد كشفت غطائى

* * *

لقد كان رضى الله عنه عالما فى اللغة ، مادتها ، ونحوها ، وصرفها وعالما فى التفسير ، وفى الحديث ، وفى الفقه ، وفى السيرة ، وفى التصوف .

وهكذا ينبغى أن يكون الصوفى فى كل العصور .

ان شعار الصوفى هو الشعار الاسلامى :

وقل رب زدنى علما .

المكافح

من أظهر السمات عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمة الكفاح والعمل ، وما من شك فى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يتجه الى الله بكل أعماله ، فكانت كلها ـ من أجل ذلك ـ عبادة.

ولقد كافح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ طيلة حياته فى جميع الميادين التى تقربه الى الله تعالى ، والتى ترقى به كفرد ، وترقى بالمجتمع فى دوائره التى تتسع متدرجة ، مبتدئة من الأسرة حتى تشمل الانسانية كلها ، وما كان هذا الكفاح الا من أجل الله ، وفى الله ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو القائل :

« انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه ».

وهو الذى أخبر أن اماطة الأذى عن الطريق من الايمان ، وأن اللقمة تضعها فى فم امرأتك تريد بذلك وجه الله ، صدقة ، وأن النطفة تضعها فى الحلال ، لك عليها ثواب ، وحينما قال ذلك استغرب الأمر بعض الصحابة ، فقالوا :

أيأتى أحدنا شهوته ، ويؤجر عليها ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما معناه : أرأيتم لو وضعها فى حرام ، أما كان عليه وزر ؟

فكذلك ، لو وضعها فى حلال كان له أجر ؟ .

« وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا » .

يقول الشيخ رضى الله عنه : فذكر بعض الناس فى هذا تأويلا لا يرضى ، ولا ينبغى أن يلتفت اليه ، وهو أنها كان حبها لله وحده ، فلما ولدت انقسم حبها ، وليس الأمر كما قال هذا القائل لأنها صديقة كما أخبر الله عنها ، بقوله : « وأمه صديقة » .

والصديق ، والصديقة لا ينتقلان من حالة الا الى أكمل منها ولكنها كانت فى بدايتها متعرفا اليها بخرق العادات ، وسقوط الأسباب فلما تكمل يقينها أرجعت الى الأسباب ، فالحالة الثانية ، أتم من الحالة الأولى .

ومما يتصل بالموضوع حديثه عن التاجر الصدوق : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التاجر الصدوق يحشر مع النبيين ، والصديقين والشهداء ، والصالحين » ، فقال رضى الله عنه : « بأى طريق يحشر مع النبيين ؟ ، وبأى طريق يحشر مع الصديقين ؟ وبأى طريق يحشر مع الشهداء ؟ ، وبأى طريق يحشر مع الصالحين ؟ .

يحشر مع النبيين فان الأنبياء شأنهم أداء الأمانة وبذل النصيحة ، فيحشر مع الأنبياء بهذا الوصف . وهذا التاجر أدى الأمانة ، وبذل النصيحة .

ويحشر مع الصديقين ، لأن الصديق ، شأنه الصفاء فى الظاهر والباطن ، قد استوى ظاهره وباطنه ، والتاجر الصدوق كذلك ، فيحشر مع الصديقين بهذا الوصف .

ويحشر مع الشهداء ، فان الشهيد شأنه الجهاد ، والتاجر الصدوق ، يجاهد نفسه ، وشيطانه ، وهواه ، فيحشر مع الشهداء بهذا الوصف .

ويحشر مع الصالحين ، فان الصالح شأنه أخذ الحلال وترك الحــرام فيحشر مع الصالحين بهذا الوصف » أ هـ .

ولا يتنافى التصوف مع الكفاح ، والعمل ، والغنى ، والثراء فلقد كان أبوالحسن الشاذلى رضى الله عنه ، من كبار المزارعين وهو القائل : لكل ولى حجاب ، وحجابى الأسباب .

ونذكر القصة التالية : يرويها ابن عطاء الله ـ يصف فيها عارفا بالله من كبار الأثرياء ، ولكن الدنيا كانت فى يده لا فى قلبه ـ يقول ابن عطاء الله : « وقد يكون حجاب الولى كثرة الغنى ، وانبساط الدنيا عليه ، وقال بعض المشايخ ، كان رجل بالمغرب من الزاهدين فى الدنيا ، ومن أهل الجد والاجتهاد ، وكان عيشه مما يصيده من البحر ، وكان الذى يصيده يتصدق ببعضه ، ويتقوت ببعضه ، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر الى بلد من بلاد المغرب ، فقال له هذا الشيخ : اذا دخلت الى بلد كذا .. فاذهب الى أخى فلان ، فأقره منى السلام ، وتطلب الدعاء منه لى ، فانه ولى من أولياء الله تعالى ، قال : فسافرت حتى قدمت تلك البلدة وسألت عن ذلك الرجل ، فدللت على دار لا تصلح الا للملوك فتعجبت من ذلك ، وطلبته ، فقيل لى : هو عند السلطان ، فازداد تعجبى فبعد ساعة ، واذا هو آتى فى أفخر ملبس ، ومركب ، وكأنما هو ملك فى موكبه ، قال : فازداد تعجبى أكثر من الأول ، قال : فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به ، ثم قلت : لا يمكننى مخالفة الشيخ ، فاستأذنت فأذن لى ، فلما دخلت رأيت ما هالنى من العبيد ، والخدم ، والشارة الحسنة ، فقلت له : أخـوك فلان .. يسلم عليك ، قال :

جئت من عنده ؟ ، قلت نعم ، قال : اذا رجعت اليه ، قل له : الى كم اشتغالك بالدنيا ، والى كم اقبالك عليها ، والى متى لا تنقطع رغبتك فيها ، فقلت هذا والله أعجب من الأول ، فلما رجعت الى

التصوف لفظا ومعنى

أما عن : اسم التصوف ، ومعناه ، فانه يقول : اختلف الناس في اشتقاق الصوفى :

فمنهم من قال : انه منسوب الى الصوف لأنه لباس الصالحين.

وقيل : هو منسوب الى الصفة ، يعنى : صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم التى ينسب اليها ، أهل الصفة ، وهو نسب على غير قياس .

ثم قال : وأحسن ما قيل فيه : أنه منسوب لفعل الله به ، أى صافاه الله ، فصوفى فسمى صوفيا ، ثم أنشد ــ رضى الله عنه :

تخالف الناس فى الصوفى ، واختلفوا
وكلهم قال قولا غير معروف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى
صافا فصوفى حتى سمى الصوفى

ويقول : الصوفى مركب من حروف أربعة :
الصاد ، والواو ، والفاء ، والياء :

فالصاد : صبره ، وصدقه ، وصفاؤه .
والواو : وجده ، ووده ، ووفاؤه .
والفاء : فقده ، وفقره ، وفناؤه .
والياء : ياء النسبة : اذا تكمل فيه ذلك ، أضيف الى حضرة مولاه .

التوبة

واول قدم فى طريق الله انما هو التوبة ، ورأى الشيخ فى التوبة يتبين من القصة التالية : فقد ذكر رضى الله عنه الحكاية المشهورة التى ذكرها الأستاذ أبو القاسم القشيرى فى رسالته ، وهى كما يلى ، قال الجنيد : دخلت على السرى فوجدته متغيرا فقلت

ما بالك يا أستاذ متغيرا ؟ فقال : دخل على شاب آنفا فقال لى : ما التوبة ؟ فقلت له أن لا تنسى ذنبك ، فقال : بل التوبة أن تنسى ذنبك ، فماذا تقول أنت يا أبا القاسم ؟ قال : فقلت القول عندى ما قال الشاب ، لأنى اذا كنت فى حال الجفاء ثم نقلنى الى حال الصفاء فذكر الجفاء وقت الصفاء جفاء .

ذكر أبو العباس ذلك ثم قال : كلام السرى أتم من كلامهما ، لأن كلام السرى يدل على مبادىء المقامات وكذلك القدوة يلزم بالكلام على مقامات العباد : بداياتها ونهاياتها ، وانما تأتى النهايات من البدايات ، والجنيد لم يكن فى ذلك الوقت بمقام أن يكون قدوة ، وكذلك الشاب ، فتكلما على أحوال أهل الارتقاء فى نهاياتهم ، فكلامهما يخص حالهما ، وكلام السرى : مهيع ، مورد للسالكين .

وباب التوبة مفتوح لكل لاجىء الى الله ، ويتكاتف الصوفية على ألا يقنطوا أحدا من رحمة الله ، ومن طريف ذلك أن الامام القشيرى بدأ رسالته الجليلة بالكتابة عن ابراهيم بن أدهم ، والفضيل بن عياض ، ويفسر شيخنا هذه اللمحة من القشيرى بقوله :

انما بدأ القشيرى فى رسالته بالفضيل بن عياض وابراهيم ابن أدهم لأنهما كانا قد تقدم لهما زمن قطيعة ثم أقبلا فأقبل الله عليهما ، فبدأ بذكرهما بسطا لرجاء المريدين الذين كانت تقدمت منهم الزلات ، وسبقت منهما المخالفات ، ثم رجعوا الى استقراع أبواب العنايات ، اذ لو بدأ بالجنيد ، وسهل بن عبد الله التسترى ، وعتبة الغلام ، وأمثالهم ممن نشأ فى طريق الله لقال القائل : ومن يدرك هؤلاء ؟ هؤلاء لم تسبق منهم زلات ولم تتقدم منهم مخالفات .

ويسير الشيخ فى فتح باب الأمل فى رحمة الله الى النهاية حتى لقد قال رضى الله عنه فى قول بعضهم :

لا يكون الصوفى صوفيا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال

فخوف العامة : على أجسادهم من النار (١) .

وخوف الخاصة : على خلعهم التى كساهم مولاهم ، أن تدنس بالمخالفة ، فعبروا الدنيا وقد رفعوا ملابس المنن خشية أن تدنس بأوساخ المخالفة ، كى يقوموا عليه بخلعه التى أنعم بها عليهم ، ونهضوا له بالوفاء فيما اقتضى منهم ، وبالأمانة والصيانة ، فيما استأمنهم . وقال رضى الله عنه : العامة اذا خوفوا خافوا واذا رجوا رجوا (٢) . والخاصة : متى خوفوا رجوا ، ومتى رجوا خافوا .

---

(١) ومعنى كلام الشيخ هذا : أن العامة لم تنفذ بصائرهم الى شهود خلع الحق عليهم من ايمان واسلام ومعرفة وتوحيد ومحبة ، وعلموا أن الله تعالى : قد توعد أهل المعصية بعقوبته فخافوا الوقوع فى المعصية لئلا يكون ذلك سبب وقوع العقوبة بهم ، فكان خوفهم اشفاقا على نفوسهم من عقوبة الله .

وأما أهل الخصوصية : فأعطاهم الحق من نوره ما أشهدهم به ، ما كساهم من خلع مننه ، فعملوا على صيانتها ، ليقدموا عليه بها لم تدنس ، ولم تتغير ، طاهرة نقية ، مشرقة بهية ، وفهموا معنى قوله تعالى : (وثيابك فطهر) .

فطهروا ملابس ايمانهم ، وايقانهم ، من دنس غفلتهم وعصيانهم ، وفهموا أيضا قوله تعالى : — (يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير) (عن لطائف المنن) .

(٢) ومعنى كلام الشيخ : أن العامة واقفون مع ظواهر الأمر ، فاذا خوفوا خافوا ، اذ ليس لهم نفوذ الى ما وراء العبادة بنور الفهم كما لأهل الله .

وأهل الله اذا خافوا رجوا : عالمين أن من وراء خوفهم وما به خوفوا ، أوصاف المرجو الذى لا ينبغى أن يقنط من رحمته ، ولا أن ييأس من منته ، فاحتالوا على أوصاف كرمه علما منهم أنه ما خوفهم الا ليجمعهم عليه وليردهم بذلك اليه ، واذا رجوا خافوا ، يخافون غيب مشيئته ، التى هى من وراء رجائهم ، وخافوا أن يكون ما أظهر من الرجاء اختبارا لعقولهم ، هل تقف مع ظاهر الرجاء ، أو تنفذ الى خوف ما بطن فى مشيئته فلذلك استثار الرجاء خوفهم .

وحكمهم فى القبض والبسط ، كما قال الشيخ : فى الخوف والرجاء ، غير أن البسط مزلة أقدام الرجال ، فهو موجب لمزيد حذرهم ، وكثرة لجائهم .

الذكـــر

وبعد التوبة الخالصة النصوح يكون الذكر ، ولأبى العباس أذكار وأوراد كثيرة ، وسنذكر بعضها فيما بعد ، ولكننا الآن نقول : انه ينصح بالذكر باسم « الله » . قال رضى الله عنه لبعض أصحابه: ليكن ذكرك الله : فان هذا الاسم سلطان الأسماء ، وله بساط وثمرة ، فبساطه العلم وثمرته النور ، ثم النور ليس مقصودا لنفسه ، وانما ليقع به الكشف والعيان ، وجميع أسماء الله للتخلق الا اسمه الله فانه للتعلق ، يقول ابن عطاء الله : ومعنى كلام الشيخ هـذا : انك اذا ناديته يا حليم ، خاطبك من اســمه الحليم ، أنا الحليم ، فكن عبدا حليما ، واذا ناديته باسمه الكريم ، خاطبك من اسمه الكريم ، أنا الكريم ، فكن عبدا كريما ، وكذلك سائر أسمائه ، الا اسمه الله ، فانه للتعلق فحسب ، اذ مضمونه الألوهية، والألوهية لا يتخلق بها أصلا .

وجميع أسماء الله اذا أسقطت منها حرفا ، ذهبت دلالتـــه على الله ، كالعليم والقادر والرحيم ، وغير ذلك من أسمائه الحسنى، الا اسمه الله ، فانك اذا أسقطت الألف بقى لله ، فاذا أسـقطت اللام الأولى بقى له ، فاذا أسقطت اللام الثانية ، بقى هو ، وهو النهاية فى الاشارة ، وأنشد ابن منصور الحلاج :

أحرف أربع بها هـــام قلبى
وتلاشت بها همومى وفكرى
ألف ألف الخـلائق بالصنـــ
ـــع ثم لام على الملامة تجرى
ثم لام زيادة فى المعـــانى
ثم هاء بهـــا أهيم أتدرى

الشـــوق

قال رضى الله عنه : الشوق على قسمين : شوق على الغيبة لا يسكن الا بلقاء الحبيب ، وهو شوق النفوس ، وشوق الأرواح على الحضور والمعاينة . فاذا رفعك الى محل المحاضرة والشهود المسلوب عن العلل فذلك مقام التعريف ، ايمانا حقيقيا ، وذاك ميدان تنزل أسرار الأزل .

واذا أنزلك الى محل المثابرة والجهاد فذاك مقام التكليف المقيد بالعلل ، وهو الاسلام الحقيقى ، وذلك ميدان تجلى حقائق الأبدية ، والمحقق لا يبالى بأى صفة يكون ، لأن صفتك تميل لا أنت ، والصفة من العين للعين ، وهو ظهورك ، والاسم للسان ، وهو نطقك ، والاسم حقيقة الصفة .

والصفة حقيقة الوجود ، والأسرار متنزلة عن الوجـــودية للصديقية ، والحقائق متجلية عن الصفات بالولاية لأهـــل العلوم الظاهرة عن الاسم بالدليل لأهل السعاية ، واليه الاشارة بقول صلى الله عليه وسلم لأبى جحيفة : يا أبا جحيفة « سائل العلماء ، وخالط الحكماء وجالس الكبراء » فالعالم يدلك بالعلم من الأسماء ، ونهايته الجنة ، والحكيم المقرب يحملك باليقين وبالحقـــائق من الصفات ، ونهايته منازل القربة ، واليه الاشارة بقوله تعالى : (اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة) .

والكبير يدلك بالأسرار من الوجود على طريق الصفاء والنزاهة ، ونهايته الى الله ، وتجتمع المراتب الثلاثة فى الكبير ، فجمل قوما

بالعلم ، وقوما بالحقائق ، وقوما بالأسرار ، وهم خلفاء الأنبيـــاء وابدال الرسل ، وهم البصراء .

(قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) أى على معاينة يعاين لكل صنف طريقهم فيحملهم عليها ، وهى النيابة .

وكان امامنا رضى الله عنه كثيرا ما ينشد :

وغــنى لى من قلـــبى
فغنيت كمـــا غــــنى
وكنـــا حيثمـــا كانوا
وكانوا حيثمـــا كنـــا

انها اشارات وليست تفسيرا ، ومن أجل ذلك فانه لا تعارض بين الصوفية والمفسرين ، وعن هذا التفسير الصوفى يقول الامام ابن عطاء الله :

فائدة : اعلم أن تفسير هذه الطائفــة لكلام الله تعالى ولكلام رسوله صلى الله عليه وسلم بالمعانى الغريبة كما مضى من فهم الشيخ رضى الله عنه ، يهب لمن يشاء اناثا : الحسنات ، ويهب لمن يشاء الذكور : العلوم ، أو يزوجهم ذكرانا واناثا : علوما وحسنات ، ويجعل من يشاء عقيما ، لا علم ولا حسنة ، وكما مضى أيضا من قوله عز وجل .

« ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » . فقال الشيخ : بقرة كل انسان نفسه ، والله أمرك بذبحها ، وكما سيأتى ان شاء الله فى تفسير الأحاديث فذلك ليس احالة للظاهر عن ظاهره ، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت له الآية ودلت عليه فى عرف اللسان ، وثم افهام باطنه تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله على قلبه ، وقد جاء أنه عليه السلام قال : « لكل أية ظاهر وباطن وحد ومطلع » .

فلا يصدنك عن تلقى هذه المعانى منهم أن يقول لك ذو جدل أو معارضة : هذه احالة لكلام الله عز وجل وكلام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فليس ذلك باحالة ، وانمـــا يكون احالة لو قالوا : لا معنى للآية الا هذا وهم لم يقولوا ذلك ، بل يقرون الظواهر على ظواهرها ، مرادا بها موضوعاتها ، ويفهمـــون عن الله ما أفهمهم ، وربما فهموا من اللفظ ضد ما قصده واضعه كما أخبرنا الشيخ الامام مفتى الأنام تقى الدين محمد بن على القشيرى رحمه الله قال :

كان ببغداد فقيه يقال له الجوزى يقرأ اثنى عشر علما فخرج يوما قاصدا المدرسة فسمع منشدا ينشد :

اذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار فقد ضاق الزمان على الصفار

فخرج هائما على وجهه حتى أتى مكة ، ولم يزل مجاورا بها حتى مات .

وقرئ على الشيخ مكين الدين الأسمر رضى الله عنه قول القائل :

لو كان لى مسعد بالراح يسعدنى لما انتظرت لشرب الراح افطارا
الراح شىء عجيب أنت شاربه فاشرب ولو حملتك الراح أوزارا
يا من يلوم على صهباء صافية خذ الجنان ودعنى أسكن النارا

فقال انسان هناك لا تجوز قراءة هذه الأبيات ، فقال الشيخ مكين الأسمر للقارىء اقرأ هذا رجل محجوب .

ويكفيك فى هذا أن ثلاثة سمعوا مناديا يقول يا سعتر برى ، ففهم كل منهم عن الله مخاطبة خوطب بها فى سره .

سمع الواحد اسع تر برى .

وسمع الآخر الساعة ترى برى .

وسمع الثالث ما أوسع برى .

فالمسموع واحد ، واختلفت أفهام السامعين كما قال سبحانه:

« تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل » وقال سبحانه : « قد علم كل أناس مشربهم » .

فأما الذى سمع : اسع تر برى ، فمريد دل على النهوض الى الله بالأعمال ليستقبل الطريق بالجد .

يقول ابن عطاء الله : وفى حديث حارثة فوائد عشرة : الأولى أنه لما سأل النبى صلى الله عليه وسلم حارثة فقال له : كيف أصبحت يا حارثة ؟ لم يقل حارثة غنيا ولا صحيحا ، ولا شيئا من الأحوال البدنية أو الأمور الدنيوية ، لأن حارثة علم أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أجل من أن يسأل عن دنيا ، بل فهم عنه أنه انما سأله كيف حاله مع الله فلذلك قال الصحابى : أصبحت مؤمنا حقا .

أما أبناء الدنيا اذا سئلوا فلا يخبرونك الا عن دنياهم ، وربما أخبروك اذا سألتهم عن الضجر بأحكام مولاهم ، فالسائل لمن هذا وصفه مشارك له فيما استثاره بسؤاله لجريان سببه منه .

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه لرجل أتى من الحج : كيف كان حجكم ؟

فقال ذلك الرجل : كثير الرخاء ، كثير الماء بسعر كذا وكذا ، وسعر كذا وكذا ، فأعرض الشيخ عنه وقال : تسألهم عن حجهم ، وما وجدوا فيه من الله من علم ونور وفتح ، فيجيبون برخاء الأسعار وكثرة المياه حتى كأنهم لم يسألوا الا عن ذلك .

الفائدة الثانية : أنه ينبغى للمشايخ أن يتفقدوا أحـــوال المريدين ، ويجوز للمريدين اخبار الأستاذين وان لزم من ذلك كشف حال المريدين ، لأن الأستاذ كالطبيب ، وحال المريد كالعورة ، والعورة قد تبدو للطبيب لضرورة التداوى .

الفائدة الثالثة : انظر الى قوة نور حارثة فى قوله : أصبحت مؤمنا حقا ، فلولا أنه منور بنور البصيرة الموجبة لمحض اليقين ، والتحقق بالسنة ، ما أخبر بذلك وأبداه ، وأثبت لنفسه حقيقة الايمان بين يدى صاحب المحو والاثبات ، وانما أبدى ذلك حارثة لأنه علم أن طواعية رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، واجبة

والرسول قد استخبره عن حاله ، فلم يسعه الكتم وأبدى ما علم أن الله تفضل به عليه ، ببركات متابعة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ليفرح له الرسول صلى الله عليه وسلم ، بمنة الله ، فيشكر الله عنه ، ويسأله تثبيت ما أعطاه . مثل هذا ما ذكره بعض العلماء العارفين قال : وقعت زلزلة بالمدينة زمن خلافة عمر رضى الله عنه ، فقال عمر : ما هذا ما أسرع ما أحدثتم والله لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم .

فانظر رحمك الله هذه البصيرة التامة ، كيف أشهدته أن الزلزلة انما هى من حدث كان ، وأن ذلك الحدث منهم ، وأنه برىء منه ؟

فهل هذا الا من نور البصيرة الكاملة التى وهبها عمر رضى الله عنه ؟

وكذلك ضربة لأبى هريرة رضى الله عنهما فى صدره حين وجد معه نعلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم وقد أمره أن من لقيه من وراء الحائط يشهد أن لا اله الا الله أن يبشره بالجنة ، ورجوعهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقول عمر رضى الله عنه : يا رسول الله أنت أمرت أبا هريرة أن يأخذ نعليك ويبشر من لقى من وراء الحائط يشهد أن لا اله الا الله ؟

قال : نعم .

قال لا تفعل يا رسول الله : خلهم يعملوا . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : خلهم يعملوا .

وهاتان الواقعتان تعرفانك بعظيم قدر عمر رضى الله عنه ، ووفور أخذه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واختطافه من نوره . وهذا الحديث مروى فى صحيح مسلم ، وانما ذكرناه ههنا مختصرا .

الفائدة الرابعة : يفهم من هذا الحديث انقسام الايمان الى قسمين : ايمان حقيقى ، وايمان رسمى .

فلذلك أخبر الصحابى بقوله أصبحت مؤمنا حقا ، والحديث يشهد له أيضا ، وروى البخارى يرفعه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : ذاق طعم الايمـــان من رضى بالله ربا ، وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا . وروى أيضا قال صلوات الله عليه وسلامه : ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان وطعمه ، أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وأن توقد نار عظيمة فكان أن يقع فيها خير له من أن يشرك بالله ، وقد جاء فى الحديث أيضا قال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير » .

وقد قال سبحانه : « أولئك هم المؤمنون حقا » .

وهما صنفان : عباد آمنوا بالله على التصديق والاذعان ، وعباد آمنوا بالله على الشهود والعيان ، وهذا الايمان الثانى تارة يسمى ايمانا ، وتارة يسمى يقينا ، لأنه ايمان انبسطت أنواره وظهرت آثاره ، واستمكن فى القلب عموده ، وداوم السر شهوده ، وعنه يكون خالص الولاية ، كما أن على القسم الآخر يكون ظاهر الولاية ، وليس يستوى ايمان مؤمن يغلب الهوى ، وايمان مؤمن يغلبه الهوى ، ولا ايمان مؤمن تعرض له العوارض فيدافعها بايمانه كايمان مؤمن غسل قلبه من العوارض فلا ترد عليه لشـــهوده وعيانه ، ولأجل هذا اختلف أهل الطريق فى عبدين أحدهما يرد عليه خاطر الذنب فيجاهد نفسه حتى يذهب ذلك عنه ، والآخر لا يخطر له هذا الخاطر أصلا ، أيهما أتم ، والذى لا شك فيه تفضيل هذا القسم الثانى ، فانه أقرب لأحوال أهل المعرفة ، والأول هو حال أهل المجاهدة ، ولأنه لا يكون القلب على هذه الصفة الا والنور قد ملأ زواياه فلأجل ذلك لم يجد خاطر الذنب مساغا

الفائدة الخامسة : مطالبة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، لحارثة باقامة البرهان على ما أثبته لنفسه ، فيدل ذلك أنه ليس كل من أدعى دعوة سلمت له وقد قال الله سبحانه :

« فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » . « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » .

فموازين الحقائق شاهدة للعباد أو عليهم ، وقد قال سبحانه : « وأقيموا الوزن بالقسط » .

فمن ادعى حالا مع الله أقيم عليه ميزانها ، فان شهد له سلمناها له ، والا فلا ، واذا كانت الدنيا على خساسة قدرها عند الله، لا تسلم لك الا ببينة تقيمها ، فمن الأحرى أن لا تسلم لك مراتب الموقنين حتى يثبتها لك برهان ، أو تسلمها لك حقيقة .

الفائدة السادسة : كان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه يقول لو كان المسئول أبا بكر رضى الله عنه لم يطالبه الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، باقامة برهان على ما ادعى ، لأن عظم رتبة أبى بكر رضى الله عنه شاهدة له من غير اظهار برهان فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن يعرفنا الفرق بين رتبة أصحابه ، فمنهم من هو كحارثة لما ادعى حقيقة الايمان طولب ببرهانها ، ومنهم من هو كأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، يثبت لهما الرسول، صلى الله عليه وسلم ، الرتب ، وان لم يثبتاها لأنفسهما ، ألا ترى الحديث الوارد عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن بقرة فى بنى اسرائيل ركبها رجل وأجهدها فقالت : سبحان الله ، لم أخلق لهذا ، وانما خلقت للحرث . فقال الصحابة : سبحان الله ، أبقرة تتكلم ؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر ، وهما غائبان ، فانظر هذه المرتبة ما أفخمها ، وهذه المنزلة ما أعظمها .

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول معنى قول الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر . أى من غير عجب ، وأنتم آمنتم متعجبين ، لأجل ذلك قالوا : سبحان الله ، أبقرة تتكلم ؟ وكان أبو العباس يقول : ان الملائكة لما بشرت زوجة ابراهيم عليه السلام بالولد قالت : « أألد وأنا عجوز ، وهذا بعلى شيخا ، ان هذا لشىء عجيب » ؟؟

فقالت الملائكة لها : أتعجبين من أمر الله ؟ أى أمر الله لا يتعجب منه ، فلم يسمها الحق صديقة ، ومريم لما بشرت بالولد من غير أب فلم تتعجب من ذلك سماها الله صديقة ، فقال سبحانه :

« وأمه صديقة » .

الفائدة السابعة : استدلال الصحابى على حقيقة ايمانه بزهده فى الدنيا ، وكذلك هو الايمان اذا تحقق به ، من قام به أورثه الزهد فى الدنيا ، لأن الايمان بالله يوجب لك التصديق بلقائه ، وعلمك بأن كل آت قريب ، يوجب لك شهود قرب ذلك فيورثك ذلك الزهد فى الدنيا ، ولأن نور الايمان يكشف لك عن اعزاز الحق لك فتأنف همتك من الاقبال على الدنيا والتطلع اليها مع أن الحقيقة تقتضى أن الزاهد فى الدنيا مثبت لها ، فانه شهد لها بالوجود اذا أثبتها مزهودا فيها ، واذا شهد لها بالوجود فقد عظمها ، وهو معنى قول الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، والله لقد عظمتها اذا زهدت فيها ، ومثل هذا الزاهد فيما زهد فيه فناء الفانى عما فنى عنه ، فاثبات أنك فان عن الشىء اثبات لذلك الشىء فما لا وجود له لا يتعلق به فناء ولا زهد ولا ترك .

ولنا فى هذا المعنى أبيات كتبتها لبعض الأصـــحاب يسمى حسنا :

حسن بأن تـــدع الوجـــود بأسره
حسن فلا يشـــغلك عنه شــاغل

ولئـــن فهمـــت لتعلمن بـــأنه
لا ترك الا للذى هـــو حاصــــل

ومتى شـــهدت سواه فاعلم أنه
من وهمك الأدنى وقلبك ذاهـــل

حســب الالــــه شـــهوده
والله يعـــلم ما يقـــول القـــائل

ولقد أشرت الى الصريح من الهـدى
دلت عليـــه ان فهمت دلائـــل

وحـــديث كان وليس شيء غـــيره
يقضى به الآن اللبيب العاقـــل

لا غير الا نســـــبة مثبـــــوتة
ليـذم ذو ترك ويحمـــد فاعـــل

الفائدة الثامنة : قول الصحابى رضى الله عنه عزبت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها . العزوب هو ترك الشيء بالتقزز له والإعراض عنه : اذ لو قال تركت الدنيا لم يلزم من الترك عدم التطلع ، فرب تارك للشيء وهو له متطلع فالعزوب اعراض مع كراهة وتحقير ، ومن كشف الله له عن حقيقة الدنيا فهذا شأنه فيها ، وقد قال الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، الدنيا جيفة قذرة . وقال صلى الله عليه وسلم ، للضحاك ما طعامك ؟ قال اللحم واللبن . قال : ثم يعود الى ماذا ؟ قال : الى ما قد

علمت يا رسول الله . قال : فان الله قد جعل ما يخرج من بنى آدم مثلا للدنيا .

فمن كشف له عن حقيقة الدنيا فشهدها جيفة قذرة فحرى أن يصرف همته عنها .

فان قلت : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الدنيا حلوة خضرة ، فاعلم أن الدنيا جيفة قذرة فى مرائى البصائر ، وحلوة خضرة فى مرائى الأبصار .

فان قلت : فما فائدة الاخبار بأنها حلوة خضرة ؟ فاعلم أن قوله ، صلى الله عليه وسلم ، الدنيا جيفة قذرة للتقذير ، وقوله : الدنيا حلوة خضرة ، للتحذير ، أى فلا تغرنكم بحلاوتها ، وخضرتها فان حلاوتها فى التحقيق مرارة ، وخضرتها يبس ، ولهذا لما سئل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن أولياء الله قال : هم الذين نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها .

الفائدة التاسعة : وقوف الصحابى رضى الله عنه ، على مستحق رتبته بقوله : وكأنى أنظر الى أهل الجنة فى الجنة يتنعمون ولم يقل : نظرت ، وقد تقدم ذلك من أن الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء ، والأولياء يطالعون مثلها .

الفائدة العاشرة : قوله فمن أجل ذلك أسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، فحارثة عبد وصل بكرامة الله الى طاعة الله ، ألا تراه كيف قال : فى الأول عزبت نفسى عن الدنيا ثم قال بعد ذلك : فمن أجل ذلك أسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، فسبق عزوب نفسه عن الدنيا ، معاملته لربه .

وكان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه يقول : الناس على قسمين :

قوم وصلوا بكرامة الله الى طاعة الله .

وقوم وصلوا بطاعة الله الى كرامة الله .

قال الله سبحانه : « الله يجتبى اليه من يشاء ، ويهدى اليه من ينيب »

ونور الله يرد الى القلب ، فيوجب له الاتصاف بصفة الزهد فى الدنيا ، والاعراض عنها ، ثم ينبث منه الى الجوارح ، فما وصل منه الى العين أوجب الاعتبار .

والى الأذن أوجب حسن الاستماع ، والى اللسان أورث الذكر ، والى الأركان أورث الخدمة .

والدليل على أن النور يوجب عزوب الهمة عن الدنيا ، والنأى عنها ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ان النور اذا دخل الصدر انشرح ، وانفسح ، فقيل : يا رسول الله فهل لذلك من علامة ؟ قال التجافى عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود .

أما المثال الثانى : فهو بمناسبة حديث حنظلة رضى الله عنه ، فقد روى مسلم فى صحيحه ، قال : لقى حنظلة أبا بكر رضى الله عنه فقال : نافق حنظلة ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : وما شأن حنظلة ؟ قال : نكون عند رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فيذكرنا الجنة والنار ، حتى كانا رأى عين ، فاذا خرجنا من عنده عافسنا الضيعات ، والزوجات ، فنسينا كثيرا ، فقال أبو بكر رضى الله عنه انا لنلقى مثل ذلك يا حنظلة ، ثم أتيا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال حنظلة : يا رسول الله نافق حنظلة ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وما شأن حنظلة ؟ فقال : نكون فتذكرنا الجنة والنار حتى كأنا رأى عين ، فاذا خرجنا من عندك ، عافسنا الضيعات والزوجات ، فنسينا كثيرا ، فقال رسول الله صلى الله عليه سلم : والذى نفسى

بيده يا حنظلة — لو تدومون على ما تكونون عليه عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة فى طرقكم وعلى فرشكم ، ولكن ساعة ، ساعة .

ففى هذا الحديث ثمانى فوائد :

الأولى : قول حنظلة : نافق حنظلة ، النفاق مأخوذ من نفق اليربوع ، وهو أن يجعل لبيته بابين متى طولب من أحدهما خرج من الآخر ، كذلك المنافق ، يظهر بظاهر الايمان ، وله مسرب من الكفر باطن اذا عاتبه أهل الكفر على ما أظهر من الايمان ، فتح مسربا من باطن كفره ، ليسلم من عتبهم ، واذا ظهرت عليه ريبة أهل النفاق ، فعوتب عليها ، تصون من ذلك ، بظاهر الايمان ، الذى أظهره ، ولذلك أخبر الله عنهم بقوله :

« واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون » .

فلما رأى حنظلة أنه يكون عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على حالة ، فاذا خرج ، وحاول أسباب الدنيا ، تغير حاله ، فلم يبق على نحو ما كان عليه عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خاف أن يكون ذلك نفاقا لاختلاف حالتيه ، فشكا ذلك الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، وحمله الايمان على أن أظهر ذلك ، ليتطلب الشفاء منه ، ويشكو داءه لمن يجد الشفاء عنده ، فلما شكا ذلك لأبى بكر — رضى الله عنه — قال له أبو بكر : انا لنلقى مثل ذلك يا حنظلة ، ولم يجبه أبو بكر — رضى الله عنه — لأن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان بين أظهرهم ، فلم ير أبو بكر أن يجيب حنظلة ، ولو أن حنظلة ، أتى أبا بكر بعد وفاة رسول الله — صلى الله عليه وسلم لأجابه .

الفائدة الثانية : يستفاد من حديث حنظلة أن من حمله الصدق على اظهار ما به حصل له الشفاء اما بأن يقال : ان ما ظننته داء

ليس بداء ، واما أن يدل من الدواء على ما يزيل الداء ، فحنظلة قيل له : ان ما ظننته داء ليس بداء .

الفائدة الثالثة : قول حنظلة لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — تذكرنا بالجنة والنار حتى كأنا رأى عين ، ولم يقل حتى نراهما رأى عين ، لما قدمناه من أن الأنبياء ، يطالعون حقائق الأشياء ، والأولياء يطالعون مثلها ، فلذلك قال حنظلة : حتى كأنا رأى عين ، ولم يقل حتى نراهما رأى عين ، كما قال حارثة وكأنى أنظر الى أهل الجنة ، ولم يقل نظرت الى أهل الجنة ، وقد تقدم هذا من قبل .

الفائدة الرابعة : ينبغي أن يقلل الدخول فى أسباب الدنيا ما أمكن ، فهذا الصحابى يقول : فاذا خرجنا من عندك عافسنا الضيعات والزوجات فنسينا كثيرا ، وقد قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ان قليلا من الدنيا ، يلهى عن كثير من الآخرة ، وقال صلى الله عليه وسلم ، ما طلعت شمس ، الا بجانبيها ملكان يناديان : يا أيها الناس ، هلموا الى ربكم ، فان ما قل وكفى ، خير مما كثر ، وألهى ؟!

الفائدة الخامسة : قوله صلى الله عليه وسلم : لو تدومون على ما تكونون عليه عندى ، وفى الذكر لصافحتكم الملائكة ، فى طرقكم ، وعلى فرشكم ، فيه اشارة الى أن الدوام على تلك الحالة عزيز ، وأن عدم دوام العبد على تلك الحالة لا يوجب معتبة ، لما طبع عليه البشر من الغفلة ، فكان الدوام على تلك الحالة من المتعذر .

الفائدة السادسة : كان الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه يقول : لم يقل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ان ذلك محال أن يكون ، أعنى ما رتب على تقدير الدوام ، وهو قوله : لصافحتكم

الملائكة : فى طرقكم ، وعلى فرشكم ، فقد يكون من أولياء الله من يهبه الله ذلك .

الفائدة السابعة : انما خص الرسول – صلى الله عليه وسلم – الفرش والطريق ؛ لأن الفرش محل الشهوات ، والطريق محل الغفلات ، فاذا صافحتهم الملائكة فى طرقهم ، وفرشهم ، فمن الأحرى أن تصافحهم فى محل طاعاتهم ، ومواطن أذكارهم .

الفائدة الثامنة : اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ، ألا يستوى وقت كينونتهم عنده ، ووقت ذكرهم بما سواهما ، حتى يعرف عظيم قدر رتبة محاضرته صلى الله عليه وسلم ، وعزازة الذكر ، وجلالة منصبهما » أ هـ .

هذان المثالان من نوع الشرح الصوفى الذى يشرح الموضوع ، ويبين الغاية ، والهدف .

ولأبى العباس درر كثيرة ، والهامات جليلة فى كثير من آيات القرآن ، وأحاديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم ..

ولقد كنا نتمنى أن نجد من ذلك الكثير حتى يمكن أن ننسق منه باقة متكاملة ، ولكن المراجع التى حوت أثار أبى العباس ، لم تعطنا ما نتمناه .

ونذكر فيما يلى ما استطعنا الوصول اليه ، كأمثلة جزئية هى لمحات من النور الالهى يفيضه الله سبحانه على من حققوا له العبودية فأنار أفئدتهم بنوره .

والآن نذكر – بتوفيق الله – ما أمكن جمعه ، من هنا وهناك مرتبا بحسب ترتيب سور القرآن الكريم .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، اياك نعبد واياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غـــير المغضوب عليهم ولا الضالين . قال الله سبحانه :

الحمد لله رب العالمين :

قال الشيخ رضى الله عنه : علم الله عجز خلقه عن حمده ، فحمد نفسه بنفسه فى أزله فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده ، فقال الحمد لله رب العالمين ، أى قولوا الحمد لله رب العالمين . أى أن الحمد الله الذى حمد به نفسه بنفسه ، هو له لا ينبغى أن يكون لغيره ، فعلى هذا تكون الألف واللام للعهد .

يقول ابن عطاء الله : وسمعته يقول فى قوله عز وجل : اياك نعبد ، واياك نستعين :

اياك نعبد ، شريعة .
واياك نستعين ، حقيقة .
اياك نعبد ، اسلام .
واياك نستعين ، احسان .
اياك نعبد ، عبادة .
واياك نستعين ، عبودية .
اياك نعبد ، فرق .
واياك نستعين جمع(١) .

---

(١) وقد كتب ابن عطاء الله السكندرى عن ذلك ما يلى : واعلم رحمك الله باقباله عليك بوده ، وجعلك من الراعين لعهده ، أن الله سبحانه طلب من العباد أن يعبـــدوه ، واقتضى منهم أن يسجلوا بذلك على أنفسهم نطقا كما قاموا به علما ، واقتضى منهم أن يفردوه ، واقتضى منهم أن تنتظم العبادة جميع =

ثم قال سبحانه وتعالى : « اهدنا الصراط المستقيم » ، فقال الشيخ رضى الله عنه : بالتثبيت فيما هو حاصل ، والارشاد لما ليس بحاصل .

وهذا الجواب ذكره ابن عطية فى تفسيره (١) ، وبسطه الشيخ رضى الله عنه ، فقال : عموم المؤمنين يقولون : اهـــدنا الصراط المستقيم ، أى بالتثبيت فيما هو حاصل والارشاد لما ليس بحاصل، فانهم حصل لهم التوحيد ، وفاتهم درجات الصالحين .

والصالحون يقولون : اهدنا الصراط المستقيم ، معناه : نسألك

= جوارحهم الظاهرة ، وحقائق وجوداتهم الباطنة ، واقتضى منهم الرجعى اليه من دعوى القيومية فى العبادة بصدق التبرى من الحول والقوة .

فلما قام العبد لله بالعبادة عملا ، اقتضى الحق أن يعترف بها نطقا : ليكون ذلك معاهدة بينه وبين الحق عز وجل ، حتى اذا انفلتت نفسه عن القيام بالعبادة ، وثقلت عليها ملازمة التكليف ، قامت الحجة على العبد بما أعطى الله سبحانه ، من الاعتراف بالعبادة له ، وأنه لا يعبد غيره لقوله : اياك نعبد ، واقتضى من العباد أن تستوعب العبادة جميع جوارحهم الظاهرة ، وعوالمهم الباطنة ، باتيانه بالصياغة هكذا : نعبد ، واعراضه عن التعبير بالهمزة المفردة بالمتكلم ، لأن النون ، انما تكون للواحد المعظم نفسه ، أو العظيم فى نفسه ، وليس هذا موضع هذين المعنيين ، اذا العبد لا يبتدىء بين يدى الله بوصف عظمته : فلم يبق الا أن يكون للواحد ، ومعه غيره ، وذلك ما أشرنا اليه من الجوارح الظاهرة ، والحقائق الباطنة .

وأما انه اقتضى منهم الرجعى اليه ، من دعوى القيومية فى العبادة ، لأنه لما قال ، اياك نعبد ، فأضاف العبادة اليهم ، واقتضى منهم أن يعترفوا بذلك قياما بدائرة الفرق التى عليها يترتب التكليف ، أردف ذلك بقوله : اياك نستعين كيلا يدعى العباد معه ، أنهم قاموا بالعبادة بأنفسهم ، فأراد منهم أن يوفوا الحقيقة حقها ، والشريعة حقها ، فلذلك جمع بين الأمرين ، القيام بالعبادة لربوبيته والتبرى من الحول والقوة مع الهيبة .

(١) المحرر الوجيز ، وقد بدأ طبعه فى المغرب ، وظهرت منه الأجزاء الأولى .

التثبيت فيما هو حاصل ، والارشاد لما ليس بحاصل ، فانهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء .

والشهداء يقولون : اهدنا الصراط المستقيم : أى بالتثبيت فيما هو حاصل والارشاد لما ليس بحاصل ، فانهم حصل لهم درجات الشهداء ، وفاتهم درجات الصديقية .

والصديقون يقولون : اهدنا الصراط المستقيم ، أى بالتثبيت فيما هو حاصل والارشاد لما ليس بحاصل ، فانهم حصل لهم درجات الصديقية ، وفاتهم درجات القطبية . والقطب يقول : اهدنا الصراط المستقيم ، أى بالتثبت فيما هو حاصل ، والارشاد لما ليس بحاصل ، فانه قد حصل له رتبة القطبانية ، وفاته علم اذا شاء الله أن يطلعه عليه ، أطلعه .

— ٢ —

قال الله تعالى :

« الذين يؤمنون بالغيب ويقيون الصلاة » (١) .

كل موضع ذكر فيه المصلون فى معرض المدح ، فانما جاء لمن أقام الصلاة ، اما بلفظ الاقامة ، أو بمعنى يرجع اليها ، قال الله سبحانه : « الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة » ، « رب اجعلنى مقيم الصلاة » ، « أقم الصلاة » ، « وأقام الصلاة » « وأقاموا الصلاة » ، « والمقيمى الصلاة » .

ولما ذكر المصلين بالغفلة قال :

« فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » ، ولم يقل فويل للمقيمين الصلاة .

---

(١) البقرة آية ٣ .

والاقامة ، هو ، أنه اذا صلى المؤمن صلاة فتقبلت منه خلق الله من صلاته صورة فى ملكوته راكعة ، ساجدة الى يوم القيامة ، وثواب ذلك لصاحب الصلاة .

ـ ٣ ـ

قال الله تعالى :

« ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة (١) .

بقرة كل انسان نفسه ، والله أمرك بذبحها .

ـ ٤ ـ

قال الله تعالى :

« ما ننسخ من آية أو ننسها ، نأت بخير منها أو مثلها (٢) »

أى ما نذهب من ولى لله الا ونأت بخير منه أو مثله .

ـ ٥ ـ

يقول الله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » (٣) .

فقال له القائل : من أين للعبد أن يتقى الله حق تقاته ؟ ومن أين له أن لا يموت الا وهو مسلم ؟

فقال الشيخ : رضى الله عنه ، قيل ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى :

---

(١) البقرة آية : ٦٧ .
(٢) البقرة آية : ١٠٦ .
(٣) آل عمران آية : ١٠٢ .

« فاتقوا الله ما استطعتم » .

فكانوا قد خوطبوا أولا أن يتقوا الله حق تقاته ، وهو أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، ثم خفف عنهم بقوله : « فاتقوا الله ما استطعتم » .

قال الشيخ — رضى الله عنه — ويمكن الجمع بين الآيتين :

فاتقوا الله ما استطعتم ، أى فى جانب الأعمال .

وقوله اتقوا الله حق تقاته ، أى فى جانب التوحيد .

وقوله « ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » ، أى لا تتعاطوا من الأعمال الا أعمالا اذا متم عليها متم مسلمين .

— ٦ —

« ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك (١) » .

قيل انما وقع التفصيل فى العبادة أدبا من الله لنا ، فأضاف المحاسن اليه وأضاف المساوىء الينا ، وان كان فعل العبد كله خلق الله تعالى : حسنة وسيئة ، كما قال « فأراد ربك أن يبلغا أشدهما » ، فأضاف ذلك الى الله ، وقال فى السفينة « فأردت أن أعيبها » ، ولم يقل فأراد ربك أن يعيبها أدبا فى التعبير ، وكما قال ابراهيم عليه السلام « واذا مرضت فهو يشفين » فأضاف المرض لنفسه والشفاء لله تعالى :

ومنهم من قال ان ذلك داخل فى مضمون القول ، وأن هـــذا التفصيل حكاه الله عنهم ، والتقدير فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا فى قولهم : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما

---

(١) النساء آية : ٧٩ .

أصابك من سيئة فمن نفسك » ، ورد عليهم بقوله : « قل كل من عند الله » .

– ٧ –

قال الله تعالى :

« واتخذ الله ابراهيم خليلا (١) » .

قال : سمى خليلا لأنه خالل سره محبة الله تعالى ، قال الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح منى
ولذا سمى الخليل خليلا

فاذا ما نطقت كنت كلامى
واذا ما صمت كنت العليلا

– ٨ –

قال الله تعالى :

« سماعون للكذب أكالون للسحت » (٢) .

نزلت فى اليهود ، ومن كان من فقراء هذا الزمان مؤثرا للسماع بهواه ، آكلا مما حرمه مولاه ، فهى نزعة يهودية ، لأن القوال يذكر العشق وما هو بعاشق ، والمحبة وما هو محب ، والوجد وما هو متواجد ، فالقوال يذكر الكذب والمستمع سماع له ، ومن أكل من الفقراء طعام الظلمة حين يدعى الى السماع فهو يصدق عليه قول الله تعالى « سماعون للكذب أكالون للسحت » .

---

(١) النساء آية : ١٢٥ .
(٢) المائدة آية : ٤٢ .

— ٩ —

قال الله تعالى : « ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم (١) » .

قال رضى الله عنه ، وقد سأله سائل : يا سيدى لم قال عيسى عليه السلام : « ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » ولم يقل الغفور الرحيم ؟ .

قال الشيخ رضى الله عنه : انمـــا عدل عن قوله : انك أنت الغفور الرحيم ، الى قوله « فانك أنت العزيز الحكيم » ، لأنه لو قال وان تغفر لهم فانك أنت الغفور الرحيم ، لكان شفاعة من عيسى عليه السلام لهم فى المغفرة ، ولا شفاعة فى كافر ولأنه عبد من دون الله ، فاستحى من الشفاعة عنده وقد عبد معه .

— ١٠ —

قال الله تعالى حاكيا عن الشياطين : « ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين (٢) .

قال رضى الله عنه :

لم يقل من فوقهم ولا من تحتهم ، لأن فوق التوحيد ، وتحت الاسلام ، والشيطان لا يمكنه أن يأتى المؤمن من توحيد ولا من اســـلام .

أما قوله : « ولا تجد أكثرهم شاكرين » فانه لو علم الشيطان أن ثم طريقا توصل الى الله أفضل من الشكر لوقف عليها .

---

(١) الاعراف آية : ١٧ .
(٢) المائدة آية : ١١٨ .

ألا ترى قوله « ولا تجد أكثرهم شاكرين » ولم يقل صابرين ولا خائفين ولا راجين .

— ١١ —

للناس أسباب وسببنا الايمان والتقوى قال الله تعالى :

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » .

— ١٢ —

يقول الله تعالى :

« ما خلق الله ذلك الا بالحق » (١) . .

الحق الذى خلق الله به كل شىء كلمة : « كن » .

قال الله سبحانه وتعالى : « ويوم يقول كن فيكون قوله الحق »

— ١٣ —

قال الله تعالى : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » (٢) . أى من طاعتهم وأعمالهم ومثل ذلك « ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

— ١٤ —

يقول الله تعالى : « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه (٣) .

همت به أرادة ، وهم بها هم ميل لا هم ارادة .

---

(١) يونس آية : ٥ .

(٢) يونس آية ٥٨ .

(٣) يوسف آية ٤٢ .

— ١٥ —

قال الله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا » (١) .

ولم يقل بنبيه ولا برسوله وهو نبيه ورسوله ، وانما كان كذلك لأنه أراد أن يفتح باب السريان للأتباع ، فأعلمنا بأن الاسراء ، من بساط العبودية ، فالنبى صلى الله عليه وسلم كان له كمال العبودية ، فكان له كمال الاسراء ، أسرى بروحه وجسمه وظاهره وباطنه .

فالأولياء لهم قسط من العبودية ، فلهم قسط من الاسراء ، يسرى بأرواحهم لا بأشباحهم .

— ١٦ —

قال الله تعالى : « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » (٢) .

الفتوة الايمان والهداية .

— ١٧ —

قال الله تعالى : « وما تلك بيمينك ياموسى ؟ قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى ، قال القها يا موسى فألقاها فاذا هى حية تسعى ، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى » (٣) .

يقال للولى وما تلك بيمينك أيها الولى

قال هى دنياى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ، وغنمه أعضاؤه ، ولى فيها مآرب أخرى فيقال له ألقها فناء عنها .

---

(١) الاسراء آية (١) .

(٢) الكهف آية ١٣ .

(٣) طه آية ١٧ — ٢١ ..

فألقاها ، فيكشف له عن حقيقتها ، فاذا هى حية تسعى ، ثم يقال له خذها ولا تخف فلا يضره أخذها لأنة أخذها باذن الله ، كما ألقاها باذن الله ، فأخذها من الوجه الذى به ألقاها ، فأطاع الله، فى أخذها كما أطاعه فى إلقائها .

— ١٨ —

قال الله تعالى : « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم » (١) .

سمى ابراهيم فتى ، لأنه كسر الأصنام ، فمن كسر الأصنام فهو الفتى ، الخليل عليه السلام وجد أصناما حسية فكسرها ، وأنت لك أصنام معنوية فان كسرتها كنت فتى ولك أصنام خمسة : النفس ، والهوى ، والشيطان ، والشهوة ، والدنيا . فان كسرتها فأنت الفتى .

— ١٩ —

قال الله تعالى : « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » (٢) .

يولج المعصية فى الطاعة ، ويولج الطاعة فى المعصية ، يطيع العبد الطاعة فيعجب بها ويعتمد عليها . ويستصغر من لم يفعلها ، ويطلب من الله العوض عليها ، فهذه حسنة أحاطت بها سيئات ، ويذنب الذنب فيلجأ الى الله فيه ، ويعتذر منه ، ويستصغر نفسه ويعظم من لم يفعله ، فهذه سيئة ، أحاطت بها حسنات ، فأيهما الطاعة ، وأيهما المعصية .

---

(١) الأنبياء آية : (٦٠) .
(٢) الحج آية : (٦١) .

— ٢٠ —

يقول الله تعالى : « ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ، الملك يومئذ الحق للرحمن »(١) انما قال للرحمن ، ولم يقل القهار ولا العزيز ؟ لأن تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة مظهران من مظاهر القهر والسطوة فلو قال : للقهار أو العزيز لم يطق ذلك العبـــــاد ، وتفطرت قلوبهم فرفق بهم أن قال : « الملك يومئذ الحق للرحمن » وهكذا قوله : « ويوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا » .

ولم يقل الى القهار ، ولا الى العزيز ، لأن الحشر وهو المطلع ، شديد فلاطفهم برحمانيته فى ظهور سلطان قهره .

— ٢١ —

يقول الله تعالى : « أمن يجيب المضطر اذا دعاه » (٢) .

الولى لا يزال مضطرا (٣) .

---

(١) الفرقان : ٢٥ — ٢٦ .

(٢) النمل آية : ٦٢ .

(٣) ومعنى كلام الشـــيخ هذا أن العامة اضطرارهم بمثيرات الأسباب ، فاذا زالت زال اضطرارهم ، وذلك لغلبـــة دائرة الحس على مشـــهدهم ، فلو شهدوا قبضة الله الشاملة المحيطة لعلموا أن اضطرارهم الى الله دائم ، لأن الاضطرار تعطيه حقيقة العبد اذ هو ممكن وكل ممكن مضطر الى ممد يده ، وممد يده به ، وكما أن الحق سبحانه وهو الغنى أبدا ، فالعبد مضطر اليه أبدا ، ولا يزايل العبد هذا الاضطرار لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولو دخل الجنة ، فهو محتاج الى الله فيها ، غير أنه غمس اضطراره فى المنة التى أفرغت عليه ملابسها ، وهذا هو حكم الحقائق ان لا يختلف حكمها لا فى الغيب ولا فى الشهادة ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة فالعلم صفته الكشف أى علم كان ، وفى =

وقال رضى الله عنه « عبر بعض الصحابة على بعض اليهود فسمعهم يقرءون التوراة ، فتخشعوا فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نزل عليه جبريل عليه السلام فقال : اقرأ . قال وما أقرأ ؟ قال : اقرأ « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم (١) .

= أى وقت كان ، والارادة صفتها التخصيص ، أى ارادة كانت وفى أى وقت كانت ، ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطراره .

وقد عاب الله قوما اضطروا اليه عند وجود أسباب ألجأتهم الى الاضطرار فلما زالت زال اضطرارهم ، قال الله سبحانه وتعالى « واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم » وقال سبحانه وتعالى « واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه ، أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » .

وقال تعالى « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم انتم تشركون » الى غير ذلك من الآيات الواردة فى هذا المعنى ولما لم تصل عقول العوام الى ما تعطيه حقائق وجوداتهم ، سلط الحق عليهم الأسباب المثيرة للاضطرار ، ليعرفوا قهر ربوبيته وعظمة الهيته وكبريائه .

ومن الدليل على فخامة رتبة الاضطرار ، أن الحق سبحانه ، أوقف الاجابة عليه فقال : « أمن يجيب المضطر اذا دعاه » .

اذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يعطى عبدا شيئا وهبه الاضطرار اليه فيه ، فيطلب باضطرار فيعطى ، واذا أراد الله أن يمنع عبدا أمرا منعه الاضطرار اليه فيه ، ثم منعه اياه وقامت حجة الله على العبد : لو اضطررت الينا لأعطيناك ، فلا يخاف عليك أن تضطر وتطلب فلا تعطى بل يخاف عليك أن تحرم الاضطرار ، فتحرم الطلب أو تطلب بغير اضطرار فتحرم العطاء .

(١) العنكبوت آية ٥١ .

فعوتبوا اذ تخشعوا من غيره ، وهم انما تخشعوا من التوراة وهى كلام الله ، فما ظنك بمن أعرض عن كتاب الله وتخشع بالملاهى والغنـــاء !؟ .

— ٢٣ —

يقول الله تعالى « أن اشكر لى ولوالديك » (١) .

انما قرن شكرهما ، لأنهما الأصل فى وجودك .

— ٢٤ —

قال سبحانه وتعالى : « ان الشـــيطان لكم عدو فاتخذوه عـــدوا » (٢) .

فقوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان ، فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب ، وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدو أى وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمحبته فكفاهم من دونه قيل لبعضهم كيف صنعك مع الشيطان ، فقال : وما الشيطان ، نحن قوم صرفنا هممنا الى الله فكفانا من دونه .

— ٢٥ —

قال سبحانه وتعالى : « الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب » (٣) .

الناس على قسمين قوم وصلوا بكرامة الله الى طاعة الله ، وهؤلاء قد اجتباهم ، وقوم وصلوا بطـــاعة الله الى كرامة الله وهؤلاء قد هداهم .

---

(١) لقمان آية ١٩ .

(٢) فاطر آية ٦ .

(٣) الشورى : ١٣

- ٢٦ -

« يهب لمن يشاء اناثا » (١) .

قال رضى الله عنه : صليت خلف الشيخ صلاة الصبح فقرأ بحم عسق حتى انتهى الى قوله تعالى يهب لمن يشاء اناثا ، فخطر لى أنها الحسنات ، ويهب لمن يشاء الذكور . فخطر لى أنها العلوم .

« أو يزوجهم ذكرانا ، واناثا » : علوما ، وحسنات .

« ويجعل من يشاء عقيما » : لا علم ، ولا حسنة .

فلما سلم الشيخ من الصلاة استدعانى ، وقال : لقد وجدته فهمك فى الصلاة : يهب لمن يشاء اناثا : الحسنات : ويهب لمن يشاء الذكور : العلوم ، أو يزوجهم ذكرانا ، واناثا : علوما ، وحسنات .

ويجعل من يشاء عقيما : لا علم ، ولا حسنة ، فعجبت من اطلاع الشيخ على ذلك ، فقال : أتعجب من اطلاعى على فهمك فى الصلاة ؟ ، قد فهم فلان كذا ، وفهم فلان كذا ، حتى عد أفهام الجماعة الذين خلفه .

- ٢٧ -

يقول الله تعالى :

« وبالأسحار هم يستغفرون » .

قال رضى الله عنه ، من طاعاتهم ، ومن أعمالهم التى قاموا لله تعالى بها فى ليلهم ، أن يشهدوها من أنفسهم .

ويقول ابن عطاء الله : ودليل ما قال الشيخ رضى الله عنه : ان الله عز وجل ، وصفهم قبل ذلك بقوله : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » ، ثم قال : « وبالأسحار هم يستغفرون » ، فلم يتقدم منهم فى لياهم ذنوب يكون استغفارهم منها .

(١) الشورى : ٤٩ .

وقد جاء فى الحديث الصحيح أن النبى – صـــلى الله عليه وسلم – كان اذا سلم من صلاته ، استغفر الله ثلاثا ، وقال الواسطى: العبادات الى طلب العفو عنها ، أقرب منها الى طلب الأعواض عليهـــا .

– ٢٨ –

قال الله تعالى :

« وابراهيم الذى وفى » .

قال رضى الله عنه : « وفى » بمقتضى قوله : حسبى الله .

– ٢٩ –

وقال رضى الله عنه فى قول سبحانه وتعالى :

« ان المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر »

ان المتقين فى جنات ونهر ، فى هذه الدار ، وفى تلك الدار ، فى الدنيا ، فى جنات العلوم ، وأنهار المعارف ، وفى الآخرة فى الجنة : التى وعدوا بها ، فى مقعد صدق ، فى هذه الدار ، وفى تلك الدار ، عند مليك مقتدر ، فى هذه الدار ، وفى تلك الدار(١) .

---

(١) وبسط كلام الشيخ رضى الله عنه : هو : أن نعيم الجنة الكائن فيها ، يكون رفائقه معجلة للمتقين فى هذه الدار ، فما كان لهم فى الجنة ، حسا ، يكون لهم فى هذه الدار معنى ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه « ان الأبرار لفى نعيم » أى فى هذه الدار ، وفى تلك الدار ، فى الدنيا ، فى نعيم الشهود وفى الآخرة فى نعيم الرؤية ، وكذلك قوله « وان الفجار لفى جحيم » أى فى هذه الدار ، وفى تلك الدار ، فى هذه الدار : فى جحيم القطيعة ، وفى تلك الدار ، فى جحيم العقوبة وقوله : « فى مقعد صدق » أى فى هذه الدار ، وفى تلك الدار ، فى هذه الدار فى مقعد صدق العبودية ، وفى تلك الدار ، فى مقعد صدق : خصوصى ، « عند مليك مقتدر » ، فى هذه الدار ، وفى تلك الدار ، فى هذه الدار لهم عندية الامداد وفى تلك الدار لهم عندية الاشهاد .

- ٣٠ -

يقول الله تعالى :

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » .

قال رضى الله عنه فى هذه الآية : مدح لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، أى أن هذا القرآن لا تثبت له الجبال لو أنزل عليها ، وأنت يا محمد ثبت لنزوله بالقوة الربانية ، التى أودعناها فيك .

وفيها ذم للكافرين ، أى أن هذا القرآن لو أنزل على جبل لخشع وتصدع ، وأنتم ما خشعتم ، ولا تصدعتم .

- ٣١ -

قال سبحانه وتعالى :

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين » .

قال رضى الله عنه : قرأت مرة ، والتين والزيتون الى أن انتهيت الى قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين » ، ففكرت فى معنى هذه الآية ، فكشفه لى عن اللوحّ المحفوظ ، فاذا مكتوب فيه :

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » روحا وعقلا ، ثم رددناه أسفل سافلين ، نفسا وهوى .

- ٣٢ -

قال رضى الله عنه ، فى قوله صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله ، امام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق بالمسجد ، لا يخرج منه حتى يعود اليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك ، وتفرقا عليه ، ورجل

دعته امرأة ذات حسن وجمال ، فقال : انى أخاف الله ، ورجل ذكر الله خاليا ، ففاضت عيناه من خشية الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ، ما تنفق يمينه » .

فقال الشيخ رضى الله عنه : الامام العادل : هو القلب ، ورجل قلبه معلق بالمسجد ، حتى يعود اليه ، أى ورجل قلبه معلق بالعرش فان العرش مسجد قلوب المؤمنين ، ورجل ذكر الله خاليا ، ففاضت عيناه ، أى خاليا من النفس والهوى ، ورجل تصدق بصدقة ، أى فأخفاها عن نفسه وهواه .

وكذلك قال ، فى قوله عز وجل : « اذ نادى ربه نداء خفيا » أى من النفس والهوى .

فاعلم أن هؤلاء السبعة ، جازاهم الحق سبحانه من حيث معاملتهم اياه .

أما الامام العادل : فانه عدل فى عباد الله ، فآوى المظلوم الى ظل عدله ، فآواه الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله .

وأما الشاب الذى نشأ فى عبادة الله ، فانه آوى الى الله معرضا عن هواه ، آويا الى كنف مولاه ، فصنع الحق معه ذلك فى الآخرة جزاء ، كما صنع هو ذلك مع الله فى الدنيا معاملة .

وأما الرجل الذى قلبه معلق بالمسجد حتى يعود اليه ، فانه آثر طاعة الله وغلب عليه حب الله ، فلذلك صار قلبه متعلقا بالمسجد، لا يحب البراح عنه ، لأنه يجد فيه روح القربة ، وحلاوة الخدمة فآوى الى الله مؤثرا لربوبيته ، فآواه الله بظاله يوم لا ظل الا ظله ، جزاء لما سبق من معاملته .

وأما الرجلان اللذان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك ، وتفرقا عليه : فانهما تواصلا بروح الله ، وتآلفا بمحبة الله ، وكان ذلك منهما انحياشا الى الله ، فآواهما الله بظله ، يوم لا ظل الا ظله .

وأما الرجل الذى دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال : انى أخاف الله فانه صلا نار مخالفة الهوى ، مخافة من المولى ، وخالف بواعث الطبع المعارضة للتقوى ، فلما خاف من الله هرب اليه ، ولما هرب اليه ، هاهنا معاملة ، آواه الله اليه فى الآخرة ، مواصلة فأظله الله بظله يوم لا ظل الا ظله .

وأما الرجل الذى ذكر الله خاليا ، ففاضت عيناه ، فانه لم تفض عيناه الا من القرح التى أحرقت قلبه ، اما حياء من الله ، أو شوقا اليه ، أو خوفا من ربوبيته ، أو لشهود التقصير معه ، فلما فعل ذلك ، حيث لا يراه أحد الا الله الواحد الأحد كان ذلك منه معاملة لله ، وانحياشا اليه بالاعتذار اليه أو بالشوق اليه فآوى الى الله فأظله الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله .

وأما الرجل الذى تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، فانه قد آثر الله على نفسه ببذل الدنيا ايثارا لحب الله على ما تحبه نفسه لأن شأن النفس ، حب الدنيا وعدم البذل لها فلا يبذلها الا من آثر الله عليها ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والصدقة برهان » ، أى برهان يدل على أن العبد آثر مولاه على نفسه وهواه ، فلما مال هذا العبد الى الله بالمعاملة ، من الله عليه ، بأن أظله فى ظله يوم لا ظل الا ظله .

وتشترك الأقسام السبعة فى معنى واحـد ، فلذلك جوزوا جزاء واحدا .

اشتركت فى أن كلا من هؤلاء السبعة : صلا حر مخالفة الهوى فى الدنيا ، فلم يذقه الله حر الآخرة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم ، حاكيا عن الله تعالى :

« لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أمنين : ان أمنته فى الدنيا أخفته فى الآخرة ، وان أخفته فى الدنيا أمنته فى الآخرة » .

- ٣٣ -

وقال رضى الله عنه ، فى قوله صلى الله عليه وسلم : « يسروا ولا تعسروا » أى دلوهم على الله ، ولا تدلوهم على غيره ، فان من دلك على الدنيا فقد غرك ، ومن دلك على الأعمال فقد اتبعك ، ومن دلك على الله فقد نصحك .

- ٣٤ -

وقال فى قوله صلى الله عليه وسلم : « رأيت الجنة فتناولت منها عنقودا لو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » .

فقال رضى الله عنه : الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء والأولياء يطالعون مثالها ، فلذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم « رأيت الجنة » ، ولم يقل كأنى رأيت الجنة .

- ٣٥ -

وكان يقول فى معنى حديث : « من عرف نفسه عرف ربه » معناه من عرف نفسه بذلها وعجزها ، عرف الله ، بعزته وقدرته قلت وهذا أسلم الأجوبة ، والله أعلم .

- ٣٦ -

وقال فى قوله صلى الله عليه وسلم : « السلطان ظل الله فى الأرض » .

هـــذا اذا كان عادلا ، فأما اذا كان جائرا ، فهو ظل النفس والهوى .

- ٣٧ -

وقال رضى الله عنه « مات رجل من أهل الصفة ، فوجد فى شملته ديناران ، فقال صلى الله عليه وسلم : « كيتان من نار » ،

قال الشيخ وقد مات ـ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كثير من الصحابة وتركوا أموالا ، ، فما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ، مثل ما قال فى هذا ، لأنهم لم يبطنوا خلاف ما أظهروا ، وهذا الذى كان من أهل الصفة ، أظهر الفاقة ، وكان عنده هذان الديناران ، فلما أظهر خلاف ما أبطن ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم ، كيتان من نار .

ـ ٣٨ ـ

وقال كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، يقول :

المؤمن فى الدنيا أسير ، ولا فكاك للأسير الا باحدى ثلاث :

اما بالحيلة .

واما بالفدية .

واما بالعناية .

وما ذكره الشيخ مأخوذ من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا سجن المؤمن » ، وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : فى تفسير هذا الحديث ، وشأن المسجون التحديق بعينه ، والاصغاء بأذنيه متى يدعى ، فيجيب .

الصوفية ووحدة الوجود

هل كان أبو العباس يعتقد فى وحدة الوجود ؟ . وما موقف شيخه منها ؟ . وما رأى تلميذه ابن عطاء الله فيها .

ان موضوع وحدة الوجود من الموضوعات التى استخدمها أعداء التصوف فى تأليب الجماهير المؤمنة على الصوفية ، ونرجو الله أن نوفق الآن الى القاء بعض الأضواء على هذا الموضوع ، أضواء نرسمها من جو المدرسة الشاذلية ، ومن جو الصوفية على وجه العموم ، ومن الجو القرآنى .

يقول أبو العباس كان الانسان بعد أن لم يكن ، وسيفنى بعد أن كان ، ومن كان، كلا طرفيه عدم فهو عدم . هذه الكلمة يشرحها ابن عطاء الله مضمنا كلامه رأيه الشخصى ، ورأى أبى الحسن رضى الله عنهم ، وهى تصوير لرأى أبى العباس ، ويمكن على هذا الوضع أن نقول انها رأى المدرسة الشاذلية فى وحدة الوجود .

يقول ابن عطاء الله : ومعنى كلام الشيخ هذا أن الكائنات لا تثبت لها رتبة الوجود المطلق . لأن الوجود المطلق انما هو لله ، وله الأحدية فيه ، انما للعوالم الوجود من حيث ما أثبت لها .

واعلم أن من الوجود له من غيره فالعدم وصفه فى نفسه ، وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : الصوفى من يرى الخلق فى طى سره كالهباء فى الهواء ، لا موجودين ، ولا معدومين حسبما هم فى علم رب العالمين .

وقال أيضا رضى الله عنه : وقد تقدم وانا لا نرى أحدا من الخلق ، هل فى الوجود أحد سوى الملك الحق ؛ وان كان ولا بد ، فكالهباء فى الهواء ، ان فتشته لم تجده شيئا . وفى كتاب الحكم من كلامنا : العوالم ثابتة باثباته ممحوة لأحدية ذاته .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : كان لى صاحب كثيرا ما يأتينى بالتوحيد ، فقلت له : ان أردت التى لا لوم فيها فليكن الفرق على لسانك موجودا ، والجمع فى باطنك مشهودا . وأشبه شيء بوجود الكائنات اذا نظرت اليها بعين البصيرة وجود الظلال ، والظل لا وجود له باعتبار جميع مراتب الوجود ، ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم ، واذا أثبت ظلية الآثار لم تنسخ أحدية المؤثر ، اذ الشيء انما يشفع بمثله ويضم الى شكله ، كذلك أيضا من شاهد ظلية الآثار لم تعقه عن الله فان ظلال الأشجار فى الأنهار لا يعوق السفن عن التسيار ، ومن ههنا يتبين لك أيضا أن الحجاب ليس أمرا وجوديا بينك وبين الله ، ولو كان بينك وبينه حجاب وجودى للزم أن يكون أقرب اليك منه ، ولا شيء أقرب اليك من الله ، فرجعت حقيقة الحجاب الى توهم الحجاب ، فما حجبك عن الله وجود موجود معه ، اذ لا موجود معه ، وانما حجبك عنه توهم موجود معه ، وذلك كرجل بات فى مكان وأراد الخروج فسمع صوت الرياح من كوة هناك فظنه زئير أسد فمنعه ذلك عن الخروج فلما أصبح لم يجد هناك أسدا وانما هو الريح انضغط فى تلك الكوة ، فما حجبه وجود أسد ، وانما حجبه توهم الأسد .

ويقول ابن عطاء الله فى مكان آخر من كتاب لطائف المنن : الحقيقة تقتضى أن الزاهد فى الدنيا مثبت لها ، فانه شهد لها بالوجود اذا أثبتها مزهودا فيها ، واذا شهدت لها بالوجود فقد عظمتها ، وهو معنى قول الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه: والله لقد عظمتها اذا زهدت فيها ، ومثل هذا الزاهد فيما زهد فيه فناء الفانى عما فنى عنه ، فاثبات أنك فان عن الشيء ، اثبات

لذلك الشيء فما لا وجود له لا يتعلق به فناء ، ولا زهد ، ولا ترك ، ولنا فى هذا المعنى أبيات كتبتها لبعض الأصحاب يسمى حسنا :

حسن بأن تدع الوجود بأسره ... حسن ، فلا يشغلك عنه شاغل
ولئن فهمت لتعلمن بأنه ... لا ترك الا للذى هو حاصل
ومتى شهدت سواه فاعلم أنه ... من وهمك الأدنى وقلبك ذاهل
حسب الاله شهوده لوجوده ... والله يعلم ما يقول القائل
ولقد أشرت الى الصريح من الهوى ... دلت عليه أن فهمت دلائل
وحديث كان وليس شيء غيره ... يقضى به الآن اللبيب العاقل
لا غير الا نسبة مثبوتة ... ليذم ذو ترك ويحمد فاعل

واذا كان هذا هو رأى المدرسة الشاذلية ، فهل هو رأى الصوفية على وجه العموم ؟ . هل يتفق رأى أبى العباس المرسى فى هذا مع رأى الحلاج وابن عربى رضى الله عنهم ؟ . وما هو التوجيه الاسلامى فى الصلة بين العبد وربه فى هذا المجال ؟ .

وحدة الوجود عند الصوفية على وجه العموم

- ١ -

نريد أن نبدأ مباشرة بملاحظة تزيل - بصورة غير متوقعة - حدة المناقشة فى هذا الموضوع ، وذلك أننا بصدد (وحدة الوجود) ولسنا بصدد وحدة الموجود . والموجود متعدد : سماء وأرض ، جبال وبحار ، وأشجار وأناس ، الخ . وهو مختلف صلابة وهشاشة ، لونا ورائحة وطعما ، متفاوت ثقلا وخفة .. الخ . ولم يقل أحد من الصوفيين الحقيقيين - ومنهم ابن عربى والحلاج - بوحدة الموجود وما كان لمؤمن ولا يتأتى لمؤمن ، أن يقول بوحدة الموجود - وما كان للصوفية ، وهم الذروة من المؤمنين أن يقولوا - وحاشاهم - بوحدة الموجود . وقد تتساءل : من أين اذن أتت الفكرة الخاطئة التى يعتقدها كثير من الناس . من أن الصوفية يقولون بوحدة الموجود ؟ ! وتفسير ذلك لا عسر فيه : ان فريقا من الفلاسفة فى الأزمنة القديمة ، وفى الأزمنة الحديثة يقولون بوحدة الموجود ، بمعنى أن الله - سبحانه وتعالى عن افكهم - هو والمخلوقات شىء واحد .

قال بذلك هيراقليطس فى العهد اليونانى : والله عنده نهار وليل ، صيف وشتاء ، وفرة وقلة ، جامد وسائل ، انه - على حد تعبيره - كالنار المعطرة تسمى باسم العطر الذى يفوح منها ، تقدس سبحانه ، وتنزه عما يقول . والله سبحانه وتعالى فى رأى « شلى » فى العصور الحديثة ، هو هذه البسمة الجميلة على شفتى طفل جميل باسم ، وهو هذه النسائم العليلة التى تنعشنا ساعة

الأصيل ، وهو هذه الاشراقة المتــألقة بالنجم الهادى فى ظلمات الليل ، وهو هذه الورود اليانعة تتفتح وكأنها ابتسامات شفاه جميلة : انه الجمال أينما وجد ، ولكنه أيضا ــ سبحانه وتعالى ــ القبح أينما كان ، وكما يكون طفلا فيه نضرة ، وفيه وسامة ، يكون جثة ميت ، ويكون دودة تغتذى من جسد ميت ، ويكون قبرا يضم بين جدرانه هذه الجثة ، وهذا الدود ، أســــتغفرك ربى وأتوب اليك .

ولوحدة الوجود ــ بمعنى وحدة الموجود ــ أنصار فى كل زمان .

ولما قال الصوفية .. بالوجود الواحد .. شرح خصومهم الوجود الواحد بالفكرة الفلسفية عن وحدة الوجود بمعنى وحدة الموجود وفرق كبير بينهما ، ولكن الخصومة كثيرا ما ترضى عن التزييف وعن الكذب فى سبيل الوصول الى هـــدم الخصم ، والغاية تبرر الوسيلة كما يقولون .

وشىء آخر فى غاية الأهمية ، كان له أثر كبير فى الخطأ فى فهم فكرة الصوفية عن الوجود الواحد ، وهو أن الامام الأشـــعرى رضى الله عنه ، رأى فى فلسفته الكلامية أن الوجود هو عين الموجود ، ولم يوافقه الكثير من الصوفية على هـــذه الفكرة الفلسفية ، ولم يوافقه الكثير من مفكرى الاسلام وفلاسفته على رأيه : وهو رأى فلسفى يخطىء فيه أبو الحسن الأشعرى أو يصيب ، وما مثله فى آرائه الفلسفية الا مثل غيره فى هذا الميدان يخطىء تارة ويصيب أخرى .

ورأى مخالفوه : أن الوجود غير الموجود ، وأنه ما به يكون وجود الموجود ، ولما قال الصوفية بالوجود الواحد ، شرح خصـــومهم فكرتهم فى ضوء رأى الأشعرى ، دون أن يراعوا مذهبهم ولا رأيهم : ففسروا قولهم بالوجود الواحد على أنه قول بالموجود الواحد . وهذا التفسير على هذه الطريقة يسحب الثقـــة فى آراء هؤلاء

الخصوم . وأمر ثالث : يجب ألا نعيره أدنى التفات لأنه أتفه ـ فى منطق البحث ـ من أن نعيره التفاتا ، وهو هذه الكلمات التى تناثرت هنا وهناك ، مخترعة ملفقة ، مزيفة ، ضالة ، فى معناها ، تافهة فى قيمتها الفلسفية ، غريبة على الجو الاسلامى تنادى بصورتها ومعناها : أنها اخترعت تضليلا وافتياتا .

انها هذه الكلمات التى يعزونها الى الحلاج ، رضوان الله عليه ، أو الى غيره .. لا توجد فى كتاب من كتبه ، ولم يخطها قلمه .. لقد اخترعوها اختراعا ثم وضعوها أساسا تدور عليه أحكامهم بالكفر والضلال .

ويكفى أن يتشبث بها انسان فيكون فى منطق البحث غير أهل للثقة .

ـ ٢ ـ

الوجود الواحد : وهل فى الوجود الواحد من شك ؟ انه وجود الله المستغنى بذاته عن غيره ، وهو الوجود الحق الذى أعطى ومنح الوجود لكل كائن ، وليس لكائن غيره ، سبحانه الوجود من نفسه ، انه سبحانه الخالق ، وهو البارىء ، وهو المصور : هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء .

ومن بعض معانى هذا التصوير قوله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وصلة الله بالانسان اذن : هى أنه سبحانه ، يمنحه الوجود الذى يريده له فى كل لحظة من اللحظات المتتابعة ، فتشكل حياته فى كل لحظة بصورة أمده الله سبحانه وتعالى بها .

وصلة الله بكل كائن : انما هى على هذا النمط : انه سبحانه مثلا : « يمسك السموات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا ان امسكهما من أحد من بعده » انه يمسكهما وجودا ، ويمسكهما تدبيرا ، ويمسكهما تماسكا وتناسقا ، انه يمسك فيهما الكيف والكم ، واذا ما سحب امداده عنهما تلاشتا كما وكيفا .

ان الله سبحانه وتعالى : محيط بالكون ، مهيمن عليه ، قيوم السموات والأرض قائم على كل نفس بما كسبت ، وقائم على كل ذروة من كل خلية ، وقائم على كل ما هو أصغر من ذلك وما هو أكبر ، بحيث لا يعزب عن هيمنته وعن قيوميته مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

هذه القيومية : أخذ القرآن والسنة يتحدثان عنها فى استفاضة مستفيضة ليهزا الانسان هزة عنيفة تجعله لا يخلد الى الأرض ولا يتبع هواه ، وانما يرتفع ببصره ويستشرف بكيانه الى الملأ الأعلى مستخلصا نفسه من عبودية المادة : ليوحد الله سبحانه وتعالى فى عبودية خالصة له ، وفى اخلاص لا يشوبه شرك من هوى أو شرك من سيطرة المادة أو الغرائز .

– ٣ –

ونريد الآن أن نصور بعض مواقف القرآن فى هذا الصدد :

ان الله سبحانه وتعالى : يوجه نظرنا فى سورة الواقعة الى مسائل نحن عنها فى العادة غافلون « أفرأيتم ما تمنون ؟! أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ » ! ..

« أفرأيتم ما تحرثون ؟! أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ » .

« أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟! أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ » .

« أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون » ؟ ..

وعلى العكس من ذلك : لو شاء الله لما خلق هذا الفرد ، ولجعل الزرع حطاما .

ولما أنزل الماء من المزن ، ولما أنشأ شجرة النار ، انه سبحانه ، بيده الأمر سلبا وايجابا ، وبيده أمر الخلق ايجادا واعداما .

أرأيت الى هذه الرمية التى ترميها : انك ما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ..

أرأيت الى الانتصار فى الجهاد ؟ ان هذا الانتصار من عند الله ، أما القتلى :

« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » .

ورزق الانسان هذا وطعامه : « فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا ، وقضبا ، وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم .. » .

— ٤ —

هذه الهيمنة ، وهذه القيومية يمر بها قوم فلا يعيرونها التفاتا ، انهم يمرون بها مرور الحيوانات بما لا تدرك ولا تعقل ، ان الله سبحانه وتعالى لا يحتل من شعورهم درجة أيا كانت ، وهمهم كل همهم مصبحين ممسين ، انما هو ملء البطن ، أو كنز الذهب والفضة ، أو النزاع على جاه ، أو العمل لتثبيت سلطان : انهم يمرون بآيات الله فلا يشهدونها وتحيط بهم آثاره ، فلا ينظرون اليها ، وتغمرهم نعماؤه وآلاؤه ، فلا يوجههم ذلك الى الحمد ولا الى الشكر ، ان الله سبحانه وتعالى : لا يحتل فى قلوبهم ولا فى تفكيرهم ولا فى بيئتهم ، ولا فى حياتهم ، قليلا

ولا كثيرا والطرف الآخر المقابل لهذا . هو هؤلاء الذين انغمسوا حقا فى محيط الالهية : سبحوا فى بحارها ، واستنشقوا نسائمها الندية ، وغمرهم لآلاؤها وضياؤها ، لقد بدأوا بحمد الله وشكره على نعمائه وآلائه التى تحيط بهم من جميع أقطارهم ، فزادهم الله نعما وآلاء .

« لئن شكرتم لأزيدنكم » لقد اتقوا الله حق تقاته فعلمهم الله .

لقد اكتفوا بالله هاديا ونصيرا فهداهم الله الى صراطه المستقيم ونصرهم على أنفسهم وعلى أعدائهم ، وأخذوا شيئا فشيئا يحاولون تحقيق التوحيد : قولا ، وعقيدة وتذوقا ، وتحققا ، وأخذوا يرون فى « أشهد أن لا اله الا الله » معانى لا يتطلع اليها غيرهم .

وبدأ معنى الشرك يتضح لهم فى صورة لا تخطر على بال اللاهين الذين شغلتهم أموالهم وأهلوهم وبدأوا يحطمون الشرك : يحطمون أصنامه ، وأوثانه ، من النفس ، والهوى ، والشيطان ، ومن الغرائز الحيوانية ، والغرائز الانسانية ، وانهار الشرك حتى من همسات الفؤاد : لقد انهار الشرك الواضح . وانهار الشرك الخفى ، وثبت فى أذواقهم ، واستقر فى أحوالهم ومقاماتهم : أن « لا اله الا الله » وأنه « أينما تولوا فثم وجه الله » وأينما كانوا فالله معهم ، وهو أقرب اليهم من حبل الوريد ، وهو أقرب اليهم من جلسائهم ومعاشريهم . انه يغمر كيانهم : فلا يرون غيره سبحانه لا يرون غيره قيوم السموات والأرض ولا يرون غيره مصرفا لليسير من الأمور وللعظيم منها ولا يرون غيره مالكا للملك : يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء .

لقد أصبحوا ربانيين ، وأصبح الله فى بصرهم وسمعهم وجوارحهم ، وفى قلبهم من قبل ذلك ومن بعده : يشغله كله فلا يدع فيه مكانا للأغيار .

وأخذ هؤلاء الصوفية يوجهون أفراد هذا القطيع من البشر اللاهى عن الله السادر فى ضلاله .. الى الله تعالى ، أخذوا فى محاولة جاهدة مستمرة — لانتزاع الانسان من الاخلاد الى المادة ليتطلع الى السماء : لقد حاولوا أن يوجهوا نظر الناس الى الله ، عن طريق آلائه التى تغمرهم وعن طريق صنعه ، وقد أحسن كل شىء خلقه ، سبحانه .

أخذوا يوجهون نظر الناس الى الله تعالى . فى الزهرة تتفتح ، وفى الزرع ينبت متجها الى السماء ، وفى الشمس تشرق ، وفى القمر يتألق ، وفى مواقع النجوم ومداراتها .

وفى كل هذا الابداع السارى فى الكون : أخذوا يشرحون معنى تلك الآيات الكريمة : « تبارك الذى بيده الملك ، وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير !! » .

وكانت تعبيراتهم تعبيرات متذوقين وليست التعبيرات الجافة لعلماء الكلام أو الفلاسفة وهم فى تعبيراتهم . يشرحون : أن الله سبحانه وتعالى ، الممد الوجود لكل موجود . انه يمد القائم بالقيام، ويمد الماشى بالمشى والمتحرك بالحركة . أنه — على حد تعبير أهل السنة والأشاعرة ، الذى يقطع وليست السكين هى التى تقطع ، وهو الذى يحرق وليست النار هى التى تحرق ، وهو الذى حينما يريد ، يقول للنار كونى بردا وسلاما فتكون بردا وسلاما ..

ومهما عبر الصوفية ، فى هذا الميدان ، عن الوجود الواحد ، فقالوا فى ذلك ، وزعم الناس أنهم أسرفوا ، واشتطوا ، فانهم

سوف لا يبلغون المدى الذى بلغته تلك الآية الكريمة التى تمثل فى روعة رائعة ، الهيمنة المهيمنة ، والاستغراق القاهر ، والجلال الشامل ، والتى لا تعنى وحدة متحدة ، ولا اتحادا متطابقا بين الخالق والمخلوق ، أو العـــابد والمعبود ، والآية هى « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » .

وهذه الآيات القرآنية التى ذكرناها انما هدفها أن تدفعنا دفعا الى الشعور بقيومية الله سبحانه وتعالى . مهيمنـــــة وهيمنته مسيطرة والى الشعور بتوجيهه سبحانه وتعالى للانسان أن يفر الى الله فى كل أمر من أموره وأن يسمو بنفسه حتى يتحقق بأن :

« لا اله الا الله » وما فعل الصوفية أكثر من ذلك انهم مهتدون بهدى القرآن والسنة يريدون للانسان : أن يكون ربانيـــا ، فاذا ما استمر الكثير من الناس يخلدون الى الأرض وينظرون دائما الى أسفل ، فليس ذلك ذنب الصوفية ، فقد أدوا واجبهم نحو التوجيه الى الله ، خير أداء .

أما اذا لم يكتف بعض الأفراد بالاخلاد الى الأرض ، وبالنظر الى أسفل وانما أخذوا يهاجمون من يدعوهم للتطلع الى السماء ، ويوجهم الى الله تعالى ، فهؤلاء انما يحاربون الله ورسوله ، وجزاؤهم معـــروف .

— ٦ —

وقد نتساءل : فيم اذن حوكم الحلاج وقضى عليه بالقتل ؟!

ان أمر هذه القضية : قضية الحلاج معروف سرها ، وما كان سرها خافيا فى يوم من الأيام . لقد كان الحلاج قوة جارفة : كان مركزا للجاذبية لا يضارع يلتف حوله الناس أينما حل ، ويسيرون معه أينما ارتحل .

وكان ـ ككل صوفى ـ يحب آل البيت لأنه كان يحب الرسول، صلى الله عليه وسلم ، وكان آل البيت اذ ذاك يطمحون فى أن تكون الدولة لهم ، وما كان بنو العباس يطمئنون الى شخصية كشخصية الحلاج المحبة لآل البيت ، نسل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وما دام الحلاج دعاية قوية تسير فى كل مكان ، وتتجه الى كل بلد ، فيجب حفاظا على أمن الدولة وتحصينا لاستقرارها : أن ينكل بالحلاج .

وما كان مقتل الحلاج دينيا قط ، كلا وانما كان سياسيا بحتا ، ومن السهل على الملوك المستبدين أن يزيفوا القضايا ، وأن يأتوا بشهود الزور ، وأن يعدوا القضاة بالمال والترقية ، وأن ينفذوا أهواءهم ..

فكان ما كان من قضية ومن قتل . والدين من كل ذلك براء ، والألفاظ التى ينسبونها للحلاج ليست فى كتاب من كتبه ، وكتبه الموجودة ـ لا تسند خصومه ولا تؤيدهم .

هذا ما كان من أمر الحلاج وبقيت كلمة :

ان المنطق الصحيح : أن لا يفتى المهندس فى أبحاث الأطباء وألا يحكم الأديب باعتباره أديبا فى أعمال المهندسين ..

ومن العدالة على هذا الوضع ـ ألا يحكم على هـــذه القمم الشامخة : ابن عربى ، الحلاج ، ابن الفارض ... من لم يبلغ مداهم أو يقاربه .

لقد قيل مرة لأحد شيوخنا الصالحين الأجلاء : ان فلانا ينتقد ابن عربى فى المجلات ، فقال : رضوان الله عليه ، وهل من حق الخنافس أن تحكم على أعمال الأسد ، ان الخنافس لا تحكم على أعمال السباع ، وليس من حقها أن تتحدث فيما تفعله السباع ، ومنطقها دائما منطق الخنافس .

أما الامام اليافعى : ـ رضوان الله عليه ـ فانه يقول عن خصوم سيدنا محيى الدين : ـ « ان حكمهم حكم ناموسة على جبل تريد ازالته من مكانه ، وتذهب الريح بأمم من الناموس ، وتبقى الجبال شوامخ راسيات ، بها تثبت الأرض ، وبها يحفظ ميزان الدنيا » أ هـ .

والرأى الذى لا يتأتى غيره من المنصف ، الرأى الحق ، هو ما قاله الامام الشعرانى عن الصوفية عامة، وعن سيدنا محيى الدين خاصة : « ولعمرى » ان عباد الأوثان لم يجرؤوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله بل قالوا : ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى، فكيف يظن بأولياء الله أن يدعوا الاتحاد بالحق سبحانه ، هذا محال فى حقهم رضوان الله عليهم » أ هـ .

فلا بد أن يبلغ الانسان المستوى أو يقارب المستوى ، وحينئذ سيقول كما قال أسلافنا الذين بلغوا المستوى أو قاربوه . رضى الله عن سيدنا محيى الدين ، ورضى الله عن الحلاج ، وعن ابن الفارض، ونفعنا بهم وبكتبهم هذا وبالله التوفيق .

• شخصيات
• إلهامات
• عادات

– ١ –

قال رضى الله عنه :

الأنبياء الى أممهم عطية ، ونبينا صلى الله عليه وسلم هدية ، وفرق بين العطية والهدية ، لأن العطية للمحتاجين ، والهدية للمحبوبين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انما أنا رحمة مهداة » .

وقال رضى الله عنه ، فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **أنا سيد ولد آدم ولا فخر** » أى لا أفتخر بالسيادة ، وانما أفتخر بالعبودية لله سبحانه :

– ٢ –

وقال فى قول أبى يزيد ، رضى الله عنه : « خضت بحرا وقف الأنبياء بساحله » معناه : أن أبا يزيد رضى الله عنه ، يشكو ضعفه وعجزه عن اللحوق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وذلك : لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، خاضوا بحر التوحيد ، ووقفوا على الجانب الآخر على ساحل الفرق : يدعون الخلق الى الخوض ، أى فلو كنت كاملا لوقفت حيث وقفوا .

قال ابن عطاء الله رضى الله عنه : وهذا الذى فسر به الشيخ كلام أبى يزيد ، رضى الله عنه ، هو اللائق بمقام أبى يزيد ، وقد كان يقول : جميع ما أخذ الأولياء بالنسبة لما أخذ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ،كزق مليء عسلا ثم رشحت منه رشاحة ، فما فى باطن الزق للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وتلك الرشاحة للأولياء رضى الله عنهم . والمشهور عن أبى يزيد رضى الله عنه التعظيم لمراسم الشريعة والقيام بكمال الأدب فالحق تأويل أحوال الأكابر من أهل الاستقامة دون المبادرة الى الانكار .

— ٣ —

وقال فى حكاية الحارث بن أسد من أنه كان اذا مد يده الى طعام فيه شبهة تحرك عليه أصبعه ، هذا وقد قدم لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، لبن فأكل منه ثم وجد كدورته فى قلبه ، فقال من أين لكم هذا اللبن ؟

فقال غلام له : كنت تكهنت لقوم فى الجاهلية فأعطونى ثمن كهانتى فتقايأه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، فلم يكن للصديق عرق يتحرك عليه ، اذا أكل طعاما فيه شبهة مع كونه أفضل من الحارث بالاجماع ؟

الجواب : ان أبا بكر رضى الله عنه كان خليفة مشرعا للعباد ، حتى يقتدى به من أكل طعاما فيه شبهة ولم يعلم فيتكلف طرحه بعد أكله فيثيبه الله عليه ، على ذلك . والحارث رضى الله عنه ، لم يكن اذ ذاك مشرعا ، ولا قدوة انما يعمل بقصد نفع نفسه فقط ، ومعلوم أن القدوة من شأنه التنزل فى المقام للتعليم .

— ٤ —

ولقد كان الشيخ رضى الله عنه ، معنيا بأبى بكر الصديق ، رضوان الله عليه ، يقول :

كنت أخرج كل يوم من باب البحر ، الى نحو المنار ، فخرجت يوما الى المنار ، فنمت عند الجانب الشرقى ، وكان قد خطر فى نفسى ما سبب قلة رواية أبى بكر رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع كثرة ملازمته له ، فاذا قائل يقول لى :

أعلم الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، وانما قلت روايته عنه ، لتحققه به .

ـ ٥ ـ

وتكلم يوما فى فضائل أبى بكر رضى الله عنه فقال :

قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ما فضلكم أبو بكر بصوم ولا صلاة ، ولكن بشىء وقر فى صدره ثم قال : ما هو هذا الشىء الذى وقر فى صدره ؟ فقال بعض الحاضرين : المراقبة .

فقال الشيخ : هذا كلام هو قشور ، من هو دون الصديق فى الرتبة ، اذا وجد المراقبة ، يستغفر الله منها ، كما يستغفر العاصى من المعصية ، وذلك أنه اذا أضاف المراقبة لنفسه ، كأنه يقول : أنت الرقيب ، وأنا الرقيب ، أاله مع الله تعالى الله عما يشركون .

يقول ابن عطاء الله السكندرى : وسمعته يقول :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر أتعلم يوم يوم ؟

قال نعم : يا رسول الله ، سألتنى عن يوم المقادير ، ولقد سمعتك حينئذ ، وأنت تقول :

أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله . وسمعته يقول : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يا أبا بكر أتريد أن أدعوك لأمر ؟ . قال : وما هو يا رسول الله ؟ . قال : هو ذاك .

— ٦ —

وكان يقول : أبو بكر وعمر خلفاء الرسالة وعثمان وعلى خلفاء النبوة . وكان يقول : طريقنا هذه لا تنسب للمشارقة ولا للمغاربة بل واحد عن واحد الى الحسن بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، وهو أول الأقطاب .

— ٧ —

وكان يقول : دخل رجل على عثمان ، رضى الله عنه وقد كان نظر الى محاسن امرأة فى الطريق فقال :

يدخل أحدكم وآثار الزنا بادية فى وجهه .

وكان يقول : قد يطلع الله الولى على غيبه اذا ارتضاه بحكم التبع للرسل عليهم الصلاة والسلام ، ومن هنا نطقوا بالمغيبات وأصابوا الحق فيها .

— ٨ —

وكان رضى الله عنه يقول : كان الجنيد ، رضى الله عنه ، قطبا فى العلم ، وكان سهل التسترى رضى الله عنه ، قطبا فى المقام .

وكان أبو زيد رضى الله عنه قطبا فى الحال .

— ٩ —

قال ابن عطاء الله رضى الله عنه قرأت على الشيخ أبى العباس كتاب « الرعاية » للمحاسبى .

فقال : جميع ما فى هذا الكتاب يغنى عنه كلمتان : اعبد الله بشرط العلم ، ولا ترض عن نفسك أبدا ، ثم لم يأذن لى فى قراءته بعد .

- ١٠ -

وكان رضى الله عنه يقول : انما بدأ القشيرى فى رسـالته بالفضيل بن عياض ، وابراهيم بن أدهم لأنهما كانا قد تقدم لهما زمن قطيعة ، فلما أقبلا ، أقبل الله عليهما ، فبدأ بذكرهما بسطا لرجاء المريدين الذين كانت تقدمت منهم الزلات والمخالفات . وليعلم أن فضل الله ليس بمعلل بعمل ، ولو أنه بدأ بالجنيد ، وسهل بن عبد الله ، وعتبة الغلام ، وأمثالهم ممن نشأ فى طريق الله ، لربما قال قائل : من يدرك هؤلاء ؟ ان هؤلاء لم يسبق لهم زلات ولا مخالفات .

- ١١ -

وقال رضى الله عنه : قال الجنيد .

أدركت سبعين عارفا كلهم يعبدون الله على ظن ووهم ، حتى أخى أبا يزيد ، لو أدرك صبيا من صبياننا لأسلم على يديه . فقال الشيخ : معنى قوله : يعبدون الله على ظن ووهم ، لا يريد بذلك ظنا فى المعرفة ، ووهما فيها ، وكيف تجتمع المعرفة ، والظن والوهم ، وانما المراد : أنهم وصلوا الى مقامات توهموا أن ليس وراءها للموقنين مقام .

فقال الجنيد : لو أدرك صبيا من صبياننا لأسلم على يديه ، أى يبين له أن فوق ذلك المقام مقام ، وفوق ذلك مقام الى ما لا آخر له . ومعنى لأسلم على يديه ، أى لانقاد له ، فالاسلام هو الانقياد .

- ١٢ -

وقال رضى الله عنه : قال بشر الحافى رضى الله عنه :

منذ أربعين سنة اشتهى الشواء ، فما صفالى ثمنه . فقال الشيخ رضى الله عنه : من ظن أن هذا الشيخ مكث أربعين سنة ،

ما وجد درهما حلالا ، يشترى به شواء فقد أخطأ ، من أين له فى الأربعين سنة ، ما يأكل ، وما يلبس ؟

وانما المعنى فى ذلك : أن هؤلاء قوم أصحاب مراتب لا يأكلون ، ولا يشربون ، ولا يدخلون فى شىء ، ولا يخرجون من شىء ، الا باذن من الله واشارة ، فلو أذن له فى أكل الشواء لصفا له ثمنه .

وبهذه المناسبة : يتحدث الشيخ عن أنواع القوت والرزق وأوصافهما ، فيقول رضى الله عنه : قوت القوم على أربعة أوجه ، مباح ، وحلال ، وطيب ، وصاف . فالمباح : ما كان مستوى الطرفين ، ما على آخذه عقاب ، ولا فى تركه ثواب . والحلال : هو ما لم يخطر لك ببال ، ولا سألت فيه أحدا من النساء والرجال .

والطيب : هو ما أخذه العبد بوصف الفناء ، اذ لا وصف له مع مولاه .

والصافى : هو ما عاينه العبد من المنبع ، يعنى من عين قدرة الله سبحانه وتعالى .

— ١٣ —

وقال رضى الله عنه ، قال سهل بن عبد الله : لا تكونوا من أبناء الدهور ، ولا من أبناء العد والاحصاء ، وكونوا من أبناء الأزل أشقى أم سعيد .

ثم قال رضى الله عنه : يقول أحدهم صليت كذا وكذا ركعة ، صمت كذا وكذا شهرا ، ختمت كذا وكذا ختمة ، حججت كذا وكذا حجة ، فهؤلاء من أبناء العد والاحصاء ، فهم الى عد سيئاتهم أحوج منهم الى عد حسناتهم .

وأما أبناء الدهور ، فيقول أحدهم : لى فى طريق الله سبعون سنة ، لى فى طريق الله ستون سنة ، وكونوا من أبناء الأزل أشقى

أم سعيد ، يعنى لاحظوا ما سبق فى علم الله ، ولا تتكلوا على مالكم من العلم والعمل ، ولكن ارجعوا الى وجود الأزل .

- ١٤ -

وقال رضى الله عنه ، يقول الله عز وجل :

ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتك من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له .

- ١٥ -

وقال رضى الله عنه : « الأكوان كلها عبيد مسخرة ، وأنت عبد الحضرة » .

- ١٦ -

وسمعته يقول : حقيقة النية عدم غير المنوى .

- ١٧ -

وكان يقول : من صحب المشايخ على الصدق وهو عالم بالظاهر ، ازداد علمه ظهورا .

- ١٨ -

وكان يقول : انما يلزم الانسان تعيين المشايخ الذين استند اليهم اذا كان طريقه لبس الخرقة ، لأنها رواية ، والرواية يتعين رجال سندها . وطريقنا هذه هداية ، وقد يجذب الله تعالى ، العبد اليه ، فلا يجعل عليه منة لأستاذ ، وقد يجمع شمله برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيكون آخذا عنه ، وكفى بهذه منة .

- ١٩ -

وكان يقول عن شيخه : كل شىء نهانا الله عنه ، فهو فى معنى شجرة آدم عليه السلام .

— ٢٠ —

وكان يقول : للأولياء الاشراف (١) على مقامات الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، وما لهم الاحاطة بمقاماتهم ، والأنبيـاء عليهم الصلاة والسلام ، يحيطون بمقامات الأولياء .

— ٢١ —

وكان يقول عن شيخه : اصحبونى ولا أمنعكم أن تصـحبوا غيرى ، فأن وجدتم منهلا أعذب من هذا المنهل فردوا .

— ٢٢ —

وكان رضى الله عنه ، يقول : قد يكون الولى مشحونا بالعـلوم والمعارف والحقائق لديه مشهورة حتى أعطى العبارة كالاذن من الله تعالى ، فى الكلام ، ويجب أن تفهم أن من أذن له فى التعبير جلت فى مسامع الخلق اشاراته .

وكان يقول : كلام المأذون له ، يخرج رعليه كسوة وطلاوة ، وكلام الذى لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار .

— ٢٣ —

وكان رضى الله عنه يقول : والله ما جلست بالناس حتى هددت بالسلب . وقيل لى : لئن لم تجلس لسلبتك ما وهبناك .

— ٢٤ —

وكان يقول رضى الله عنه : لى أربعون سـنة ما حجبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو حجبت طرفة عين ، ما أعددت نفسى من جملة المسلمين .

وكذلك كان يقول فى حق الجنة ، وفى الوقوف بعرفة كل سنة .

---

(١) بمعنى الاستشراف والتطلع .

— ٢٥ —

وكان رضى الله عنه يقول : اذا قرأت القرآن فكأنما أقرأه على الله عز وجل . وكان اذا سمع أحدا ينطق باسم الله تعالى أو اسم النبى صلى الله عليه وسلم ، يقرب فمه منه حتى يلتقط ذلك الاسم اجلالا أن يبرز فى الهواء .

— ٢٦ —

وكان يقول : ما سمعتموه منى ففهمتموه ، فاستودعوه الله ، يرده عليكم وقت الحاجة وما لم تفهموه فكلوه الى الله ، يتولى الله بيانه ، واسعوا فى جلاء مرآة قلوبكم يتضح لكم كل شىء .

— ٢٧ —

وكان اذا مدح بقصيدة يجيز المادح باقباله عليه ، ويعطيه العطايا . وكان يقول لأصحابه : اذا جاءنا رئيس قوم فأخبرونى به ، اخرج اليه ، فاذا فارقه مشى معه خطوات ثم رجع . ويقول : ان هؤلاء كلفوا نفوسهم الى زيارتنا ، ونحن لم نزرهم وكان لا يأكل من طعام عنى له ولا من طعام أعلم به قبل أن يأتيه ، وكان لا يدعو للمحسن حتى يخرج من مجلسه ، فيدعو له بظهر الغيب ، وكانت صلاته موجزة فى تمام ، ويقول : هى صلاة الأبدال .

— ٢٨ —

وكان اذا سمع أحدا يقول : هذه ليـــلة القدر ، يقول : نحن بحمد الله أوقاتنا كلها ليلة قدر .

وكان يكرم الناس على نحو رتبهم عند الله ، حتى أنه ربما يدخل عليه المطيع فلا يلتفت اليه ، لكونه يرى عبادته ، ويدخل عليه العاصى فيقوم له ، لأنه دخل بذل نفس وانكسار .

ومدحوا عنده شخصا بالعلم ، وكان كثير الوسوسة فى الوضوء والصلاة ، فقال الشيخ : أين علمكم الذى تمدحون به هذا الرجل ؟

العلم هو الذى ينطبع فى القلب كالبياض فى الأبيض والسواد فى الأسود · وقال لرجل من الحجاج : كيف كان حجكم ؟ فقال : كان كثير الرخاء ، كثير الماء ، سعر كذا وكذا ، فأعرض عنه الشيخ ، فقال : أسألهم عن حجهم وما وجدوا فيه من الله تعالى من العلم والفوز والفتح فيجيبون برخاء الأسعار ، وكثرة المياه .

— ٢٩ —

وكان لا يثنى على مريد بين اخوانه خشية الحسد .

— ٣٠ —

وكان يقول : اذا ضاق الولى هلك من يؤذيه فى الوقت ، واذا اتسعت معرفته احتمل أذى الثقلين ، ولم يحصل لأحد منهم ضرر بسببه . وكان يقول : لحوم الأولياء مسمومة ، ولو لم يؤاخذوك فاياك ثم اياك .

— ٣١ —

وكان يقول : نحن فى الدنيا بأبداننا مع وجـــود أرواحنا ، وسنكون فى الآخرة بأرواحنا مع وجود أبداننا . قلت : وفى هذا رد لمن قال : يكون الناس فى الجنة ، بأرواحهم لا بأجسامهم ، وعليه جماعة من أهل الكشف الناقص ، وسبب غلطهم شهودهم أهل الجنة يتحولون فى أى صـــورة شاءوا . وهـــذا شأن الأرواح لا الأجسام ، وغاب عنهم أن الأجسام هناك منطوية فى الأرواح لا معدومة ، كما أن الأرواح فى هذه الدار منطوية فى الأجسام .

— ٣٢ —

وكان سيدى أبو العباس ، رضى الله عنه ، يقول : معرفة الولى أصعب من معرفة الله عز وجل ، فان الله تعالى ، معروف بكماله وجماله ، وحتى متى تعرف مخلوقا مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب(١) .

— ٣٣ —

سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول :

الطى على قسمين : طى أصغر ، وطى أكبر . فالطى الأصغر لعامة هذه الطائفة ، أن تطوى لهم الأرض من مشرقها الى مغربها فى نفس واحد .

والطى الأكبر : طى أوصاف النفوس (٢) .

— ٣٤ —

سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول : قال ملك من الملوك لبعض العارفين تمن على . فقال له ذلك العارف : الى تقول ولى عبدان قد ملكتهما وملكاك ، وقهرتهما وقهراك ، وهما الشهوة والحرص ، فأنت عبد عبدى ، فكيف أتمنى على عبد عبدى ؟ (٣) .

— ٣٥ —

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول : ان لله عبادا محوا فعالهم بأفعاله ، وأوصافهم بأوصافه ، وذواتهم بذاته ، وحملهم من أسراره ما يعجز عامة الأولياء عن سماعه (٤) .

---

(١) الذى قال : هو ابن عطاء الله السكندرى .

(٢) السامع هو ابن عطاء الله .

(٣) السامع هو ابن عطاء الله .

(٤) السامع هو ابن عطاء الله السكندرى .

- ٣٦ -

وكان يقول : لما خلق الله تعالى الأرض ، اضطربت فأرساها بالجبال . وكذلك النفس ، لما خلقها الله تعالى ، اضطربت فأرساها بجبال العقل .

وكان يقول : الأكوان كلها عبيد مسخرة ، وأنت عبد حضرته .

وكان يقول لأصحابه : اذا وصلتم الى مكة فليكن همكم رب البيت لا البيت ، ولا تكونوا ممن يعبد الأصنام والأوثان .

وكان يقول : من عرف الله لم يسكن اليه ، لأن فى السكون الى الله ضربا من الأمن ولا يأمن مكر الله . الا القوم الخاسرون .

- ٣٧ -

وكان رضى الله عنه ، يقول : السماء عندنا كالسقف والأرض كالبيت ، وليس الرجل عندنا من يحصره هذا البيت .

- ٣٨ -

وكان يقول : الكائنات على أربعة أقسام : جسم كثيف ، وهو بمجرده جماد ، وجسم لطيف وهو بمجرده جان ، وروح شفاف ، وهو بمجرد ملك ، وسر غريب ، وهو المعنى المسجود له ، فالآدمى صورته بظاهرها جماد ، وبوجود نفسه وتخيلها وتشكلها جان ، وبوجود روحه ملك ، وباعطائه السر الغريب استحق أن يكون خليفة .

وكان يقول : ليس العجب ممن تاه فى نصف ميل أربعين سنة ، انما العجب ممن تاه فى مقـــدار شبر الستين ، والسبعين ، والثمانين سنة وهى : البطن .

— ٣٩ —

وكان يقول : لن يصل الولى الى الله تعالى ، حتى ينقطع عنه شهوة الوصول الى الله تعالى . أى : انقطاع أدب لا انقطاع ملل ، لغلبة التفويض على قلبه .

— ٤٠ —

وكان يقول : الولى فى حال فنائه لابد أن تبقى معه لطيفة علمية ، عليها يترتب التكليف ، وذلك كما يكون الانسان فى البيت المظام ، فهو عالم بوجوده ، وان كان غير مشاهد .

— ٤١ —

وكان يقول : علامة حب الدنيا خوف المذمة ، وحب الثناء ، فلو زهد لما خاف ، ولا أحب .

وكان رضى الله عنه ، يقول : الورع من ورعه الله .

وكان يقول : من لم يصلح للدنيا ، ولا للآخرة يصلح لله .

وكان يقول : من اشتاق الى لقاء ظالم فهو ظالم .

— ٤٢ —

وسمعته(١) يقول : لو عذب الله الخلائق أجمع لم ينلك من عذابهم شىء ، ولو نعمهم أجمع لم ينلك من نعيمهم شىء ، فكأنك فى الوجود وحدك ، ثم أنشد :

---

(١) السامع هو ابن عطاء الله السكندرى .

أنت المخاطب أيهـــا الانسان

فأصـــخ الى يلح لك البرهان

- ٤٣ -

وكان من مذهبه رضى الله عنه : أنه لا يلزم أن يكون القطب شريفا حسنيا ، بل قد يكون من غير هذا القبيل (١) .

(١) لطائف المنن .

الأحزاب والأوراد

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم(١)

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، اياك نعبد ، واياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . آمين .

الله لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم .

آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا واليك المصير ، لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا

---

(١) مصدر هذا الحزب : كتاب لطائف المنن – تأليف الامام تاج الدين ابن عطاء الله ، وقد بدأ الحديث عنه بقوله : وها نحن نثبت حزب سيدنا ومولانا الشيخ الامام قطب العارفين وعلم المهتدين شهاب الدين أبى العباس أحمد بن عمر المرسى رضى الله عنه وان كان بعضه من كلام شيخه الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنهما .

ويقول أيضا : فأما حزب الشيخ أبى العباس رضى الله عنه فهو هذا وهو ورد شيخه بعد العشاء الآخرة .

أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين .

ألم الله لا اله الا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان .

يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر .

اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم .

الرحمن ، علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان .

تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام .

سبحان ربى العظيم ، سبحان ربى العظيم ، سبحان ربى العظيم ، سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض ، يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير ، هو الأول والآخر والظاهر ، والباطن ، وهو بكل شىء عليم . هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ، له ملك السموات والأرض والى الله ترجع الأمور ، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور .

هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن

المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق اذا وقب ، ومن شر النفاثات فى العقد ، ومن شر حاسد اذا حسد .

قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، اله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس .

اللهم يا من هو كذلك ، وعلى ما وصفه به عباد الله المخلصون من النبيين ، والصديقين ، والشهداء والصالحين والعلماء الموقنين ، والأولياء المقربين ، من أهل سماواته وأرضه ، وسائر الخلق أجمعين أسألك بها وبالآيات والأسماء كلها ، وبالعظيم منها ، وبالأم (١) والسيدة (٢) وبخواتم سورة البقرة وبالمبادىء والخواتيم ، وبآمين على الموافقة ، وبحاء الرحمة ، وميم الملك ، ودال الدوام ، محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما .

أحون قاف أدم حم هاء آمين .

---

(١) هي الفاتحة .

(٢) سيدة آى القرآن : آية الكرسى .

كهيعص : اغفرلى وارحمنى برحمتك التى رحمت بها أنبياءك ورسلك ولا تجعلنى بدعائك ربى شقيا وانى خفت وأخاف أن أخاف ثم لا أهتدى اليك سبيلا فاهدنى اليك وأمنى بك من كل خوف ومخوف فى الدين والدنيا والآخرة ، انك على كل شىء قدير .

اللهم يا بديع السموات والأرض ، يا قيوم الدارين ، ويا قيوم بكل شىء ، يا حى يا قيوم ، يا الهنا لا اله لنا الا أنت كن لنا وليا ونصيرا وأمينا وآمنا بك من كل شىء حتى لا نخاف الا أنت ، واجعلنا فى جوارك ، واحجبنا بالذى حجبت به أولياءك فترى ولا يراك أحد من خلقك واصبب علينا من الخير أكمله وأجمله ، واصرف عنا من الشر أصغره وأكبره ، طس ، حم عسق ، مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان .

اللهم انا نسألك الخوف منك ، والرجاء فيك ، والمحبة لك والشوق اليك والأنس بك والرضا عنك والطاعة لأمرك على بساط مشاهدتك ، ناظرين منك اليك ، وناطقين بك عنك لا اله الا أنت سبحانك ، ربنا ظلمنا أنفسنا وقد تبنا اليك قولا وعقدا فتب علينا جودا وعطفا ، واستعملنا بعمل ترضاه ، وأصلح لنا فى ذرياتنا انا تبنا اليك وانا من المسلمين .

يا غفور ، يا ودود ، يا بر ، يا رحيم ، اغفر لنا ذنوبنا وقربنا بودك ، وصلنا بتوحيدك ، وارحمنا بطاعتك ولا تعاقبنا بالفترة ولا بالوقفة مع كل شىء دونك ، واحملنا على سبيل القصد واعصمنا من جائرها أنك على كل شىء قدير .

اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، اجمع بيننا وبين الصدق ، والنية والاخلاص والخشوع والهيبة والحياء ، والمراقبة ، والنور ، واليقين ، والعلم ، والمعرفة ، والحفظ ، والعصمة ، والنشاط ، والقوة ، والستر والمغفرة ، والفصاحة ، والبيان ،

والفهم فى القرآن . وخصنا منك بالمحبة والاصطفائية والتخصيص والتولية ، وكن لنا سمعا وبصرا ولسانا وقلبا وعقلا ويدا ومؤيدا ، وآتنا العلم اللدنى ، والعمل الصالح ، والرزق الهنى ، الذى لا حجاب به فى الدنيا ، ولا حساب ولا سؤال ولا عقاب عليه فى الآخرة ، على بساط علم التوحيد والشرع ، سالمين من الهوى والشهوة والطبع ، وأدخلنا مدخل صدق ، وأخرجنا مخرج صدق ، واجعل لنا من لدنك سلطانا نصيرا .

يا الله ، يا على ، يا عظيم ، يا حليم ، يا عليم ، يا سميع ، يا بصير ، يا مريد ، يا قدير ، يا حى ، يا قيوم ، يا رحمن ، يا رحيم ، يا من هو هو هو يا هو ، أسألك بعظمتك التى ملأت أركان عرشك ، وبقدرتك التى قدرت بها على خلقك وبرحمتك التى وسعت كل شىء ، وبعلمك المحيط بكل شىء ، وبارادتك التى لا ينازعها شىء ، وبسمعك وبصرك القريبين من كل شىء ، يا من هو أقرب الى من كل شىء ، قد قل حيائى وعظم افترائى ، وبعد منائى ، واقترب شقائى ، وأنت البصير بمحنتى وحيرتى وشهوتى وسوءتى ، تعلم ضلالتى وعمايتى وفاقتى ، وما قبح من صفاتى ، آمنت بك وبأسمائك وصفاتك وبمحمد رسولك ، فمن ذا الذى يرحمنى غيرك ومن ذا الذى يسعدنى سواك ، فارحمنى وأرنى سبيل الرشد، واهدنى اليه سبيلا ، وأرنى سبيل الغى وجنبنى اياه سبيلا ، واصحبنى منك الحق والنور والحكم والفصل والبيان وأحرسنى بنورك يا الله ، يا نور ، يا حق ، يا مبين ، افتح قلبى بنورك ، وعلمنى من علمك ، وفهمنى عنك ، وأسمعنى منك ، وبصرنى بك ، انك على كل شىء قدير .

اللهم انى أصبحت وأنا أريد الخير وأكره الشر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، فاهدنى بنورك لنورك فيما يرد على منك ، وفيما يصدر منى اليك ، وفيما يجرى بينى وبين خلقك ، وضيق

على بقربك ، واحجبنى بحجب عزتك ؛ وعن حجبك وكن أنت حجابى حتى لا يقع شىء منى الا عليك ؛ وسخر لى أمر هـــذا الرزق ، واعصمنى من الحرص والتعب فى طلبه ، ومن شـــغل القلب وتعلق الهم به ، ومن الذل للخلق بســـببه ومن التفكر والتدبر فى تحصيله ، ومن الشح والبخل بعد حصوله ، وما يعرض فى النفس من ذلك وتخلقه بقدرتك على وفق ارادتك وعلمك ، ومن ضرورات الحاجات الى خلقك ، فاجعله اللهم سببا لاقامة العبودية ، ومشاهدة لأحكام الربوبية ، وهب لى خفية من خفياتك ونورا من أنوارك وذكرا من أذكارك وسرا من أسرارك ، وطاعة من طاعات أنبيائك ، وصحبة لملائكتـــك ؛ وتول أمرى بذاتك ، ولا تكلنى الى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك ، واجعلنى حسنة من حسناتك ، ورحمة بين عبادك ، تهدى بها من تشاء الى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا الى الله تصير الأمور .

اللهم أهدنى لنورك ، واعطنى من فضلك ، وامنعنى من كل عدو حولك ، ومن كل شىء يشغلنى عنك ؛ وهب لى لسانا لا يفتر عن ذكرك ، وقلبا يسمع بالحق منك ، وروحا يكرم بالنظر اليك وسرا ممتعا بحقائق قربك ، وعقلا جائلا بجلال عظمتك ، وزين ما ظهر وما بطن منى بأنواع طاعتك ، يا سميع ، يا عليم ، يا عزيز ، يا حكيم .

اللهم كما خلقتنى فاهدنى ، وكما أمتنى فاحينى ، وكما أطعمتهم فأطعمنى واســـقنى ، ومرضى لا يخفى عليك فاشـــفنى ، وقد أحاطت بى خطيئاتى فاغفرلى ، وهب لى علما يوافق علمك ، وحكما يصادف حكمك واجعل لى لسان صدق بين عبـــادك ، واجعلنى من ورثة جنتك ، ونجنى من النار بعفوك ، وأدخلنى الجنة حالا ومآلا برحمتك ، وأرنى وجه محمد نبيك ، وارفع الحجاب فيما بينى وبينك ، واجعل مقامى عندك دائما بين يديك ،

وناظرا منك اليك ، وأسقط البين عنى حتى لا يكون شيء بيني وبينك ، واكشف لى عن حقيقة الأمر كشفا لا طلب بعده لعبدك مع المزيد المضمون بكريم وعدك ، انك على كل شيء قدير •

يا الله ، يا عظيم ، يا سميع ، يا عليم ، يا بر ، يا رحيم ، عبدك قد أحاط به خطيئاته ، وأنت العظيم وندائى كأنه لم يسمع وأنت السميع ، وقد عجزت عن سياسة نفسى ، وأنت العليم ، وانى لى برحمتها وأنت البر الرحيم ، كيف يكون ذنبى عظيما مع عظمتك ، أم كيف تجيب من لم يسألك وتترك من سألك أم كيف أسوس نفسي بالبر ، وضعفى لا يعزب عنك ، أم كيف أرحمها بشيء ، وخزائن الرحمة بيديك الهى عظمتك ملأت قلوب أوليائك ، فصغر لديهم كل شيء ، فاملأ قلبى بعظمتك حتى لا يصغر ولا يعظم لديه شيء ، واسمع ندائى بخصائص اللطف ، فانك السميع من كل شيء •

الهى ستر عنى مكانى منك حتى عصيتك ، وأنا فى قبضتك واجترحت ما اجترحت فكيف لى بالاعتذار اليك ، الهى جذبك لى أطمعنى فيك ، وحجابى عنك آيسنى من غيرك ، فاقطع حجابى حتى أصل إليك واجذبنى جذبة لا أرجع بعدها لغيرك •

الهى كم من حسنة ممن لا تحب لا أجر لها ، وكم من سيئة ممن تحب لا وزن لها ، فاجعل سيئاتى سيئات من أحببت ، ولا تجعل حسناتى حسنات من أبغضت ، فان كرم الكريم مع السيئات أتم منه مع الحسنات فاشهدنى كرمك على بساط رحمتك ، ورضنى بقضائك ، وصبرنى على طاعتك فيما أجريت على من أمرك ونهيك وأوزعنى شكر نعمتك ، وغطنى برداء عافيتك حتى لا أشرك بك مع المزيد المضمون بكريم وعدك ، انك على كل شيء قدير •

الهى معصيتك نادتنى بالطاعة ، وطاعتك نادتنى بالمعصية ، ففى أيهما أخافك ، وفى أيهما أرجوك • ان قلت بالمعصية قابلتنى

بفضلك ، فلم تدع لى خوفا ، وان قلت بالطاعة قابلتنى بعدلك فلم تدع لى رجاء ، فليت شعرى كيف أرى احسانى مع احسانك ، أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك قاف جيم ، سران من سرك وكلاهما دالان على غـــيرك فبالسر الجامع الدال عليك لا تدعنى لغيرك ، انك على كل شىء قدير .

يا الله ، يا غفار ، يا منعم ، يا هادى ، يا ناصر ، يا عزيز ، هب لى من نور أسمائك ما أتحقق به حقائق ذاتك ، وافتح لى واغفر لى ، وأنعم على واهدنى ، وانصرنى واعزنى يا معز لا تذلنى بتدبير مالك ، ولا تشغلنى عنى بمالك ، فالكل كلك ، والأمر أمرك ، والسر سرك ، عدمى وجودى ، ووجودى عدمى ، فالحق حقك ، والجعل جعلك ، ولا اله غيرك ، وأنت الله الحق المبين .

يا عالم السر وأخفى ، يا ذا الكرم والوفاء ، علمك قد أحاط بعبدك ، وقد شقى فى طلبك ، فكيف لا يشقى من طلب غيرك ، تلطفت بى حتى علمت أن طلبى لك جهل ، وطلبى لغيرك كفر ، فأجرنى من الجهل ، واعصمنى من الكفر ، يا قريب أنت القريب ، وأنا البعيد ، قربك أيأسنى من غيرك ، وبعدى عنك ردنى للطلب الك ، فكن لى بفضلك حتى تمحو طلبى بطلبك ، يا قوى يا عزيز انك على كل شىء قدير .

اللهم لا تعذبنا بارادتنا ، وحب شهواتنا فنشغل أو نحجب أو نفرح بوجود مرادنا ، أو نحزن أو نسخط أو نسلم تســـليم النفاق عند الفقد ، وأنت أعلم بقلوبنا فارحمنا بالنعيم الأكبر ، والمزيد الأفضل ، والفوز الأكمل ، وغيبنا وغيب عنا كل شىء ، وأشهدنا اياك بالاشهاد ، وانصرنا فى الحياة الدنيـــا ويوم يقوم الأشهاد

يا الله ، يا قدير ، يا مريد ، يا عزيز ، يا حكيم ، يا حميد ، انا نسألك بالقدرة العظمى ، وبالمشيئة العليا ، وبالآيات والأسماء

كلها ، وبهذا العظيم منها ، أن تسخر لنا هذا البحر ، وكل بحر هو لك فى الأرض والسماء والملك والملكوت ، كما سخرت البحر لموسى ، **وسخرت النار لابراهيم ، وسخرت الجبـــال والحديد لداود ، وســـخرت الريح والشـــياطين والجن لسليمان ، وسخر لنا كل شيء يا من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجـــير** ولا يجار عليه ، يا على ، يا عظيم ، يا حليم ، يا عليم ، أحون قاف أدم حم هاء آمين أ هـ .

ومن دعائه وذكره

١ ـ لا اله الا الله الأول الآخر ، الظاهر البـــاطن ، محمد رسول الله ، السيد الكامل الفاتح الخاتم .

٢ ـ ومن ذكره أيضا :

يا الله يا نور يا حق يا مبين : احيى قلبى بنورك ، وأقمنى بشهودك ، وعرفنى الطريق اليك .

٣ ـ ومن ذكره أيضا :

رب اغفرلى ، واجعلنى لك عبدا ذائب النفس بأنوارك ، مطموس الحس بجلالك ، واغفرلى وللمؤمنين والمؤمنات .

٤ ـ ومن دعائه :

اللهم اغفر لى واسترنى ولا تفضحنى فى الدنيا والآخرة ، وعلمنى وذكرنى وفهمنى ، وأرحنى وفرحنى وبرنى وفرغنى من كل شيء الا من ذكرك وطاعتك ، وطاعة رسولك ، ومحابك ومحاب رسولك صلى الله عليه وسلم .

٥ ــ ومن دعائه عقب كلامه :

اللهم كن بنا رءوفا ، وعلينا عطوفا ، وخذ بأيدينا اليك أخذ الكرام عليك ، اللهم قومنا اذا اعوججنا ، وأعنا اذا استقمنا ، وخذ بأيدينا اذا عثرنا ، وكن لنا حيثما كنا .

٦ ــ ومن دعائه أيضا رضى الله عنه :

اللهم ارزقنى من كنز لا حول ولا قوة الا بالله ، فانها كنز من كنوز الجنة ، واضربنى بها ضربا تمحق بها من قلبى كل قوة ، واغننى بذلك الرزق عن ملاحظة النفس والخلق ، وأخرجنى به عن ذل الفقر والتدبير والاختيار وعن الغفلة والشهوة ومشيئة النفس والقهر والاضطراب انك على كل شىء قدير .

٧ ــ ومن دعائه رضى الله عنه :

باسم المهيمن العزيز القادر اجل كل شىء ، وهو ناصرى ق ج ن ص انصرنى فانك خير النــــاصرين ، وافتح لى فانك خير الفاتحين ، وارزقنى فانك خير الرازقين ، واهدنى ونجنى من القوم الظالمين .

٨ ــ ومن دعائه رضى الله عنه :

يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، اجمع بينى وبين طاعتك على بساط مشاهدتك ، وفرق بينى وبين هم الدنيا وهم الآخرة ، ونب عنى فى أمرهما ، واجعل همى انت ، واملأ قلبى بمحبتك وبهجه بأنوارك ، وخشع قلبى بسلطان عظمتك ، ولا تكلنى الى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك .

مسجده وضريحه

مسجده

أقام أبو العباس المرسى فى الاسكندرية ثلاثا وأربعين سنة ينشر العلم ويهذب النفوس ويضرب المثل بورعه وتقواه الى أن انتقل الى جوار ربه فى الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٥ هـ ودفن فى الاسكندرية فى مقبرة باب البحر الى أن كانت سنة ٧٠٦ هـ حين رأى الشيخ زين الدين بن القطان كبير تجار الاسكندرية فبنى عليه مسجدا وقد خضع هذا المسجد لتطورات كثيرة حيث أعاد بناءه الأمير قجماش الاسحاقى الظاهرى والى الاسكندرية فى أواخر القرن التاسع الهجرى وبنى لنفسه قبرا فيه ، وفى سنة ١٠٠٥ جدد بناءه الشيخ أبو العباس السنفى ودفن فيه بعد وفاته ، وفى سنة ١١٨٩ زار الاسكندرية الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله المعزى ، وجدد معظم أجزاء المسجد ووسع بعض نواحيه . وفى سنة ١٢٨٠ جدد أحمد الدخاخنى شيخ طائفة البنائين وأوقف عليه أوقافا كثيرة .

وفى سنة ١٩٢٧ أعدت وزارة الأوقاف مشروعا لاعادة بناء المسجد ، وانشاء ميدان فسيح أمامه ووضعت الأسس للبناء الجديد فى أوائل سنة ١٩٢٩ وتم المسجد فى سنة ١٩٤٤ فأصبح أجمل مساجد المدينة .

ولقد كان مسجد أبى العباس المرسى مركز تجمع المظاهرات الشعبية الثائرة التى قام بها السكندريون خلال ثورة سنة ١٩١٩

اذ كانت تخرج منه مخترقة أحياء المدينة ؛ كما اتخذ منه رجال الدين الاسلامى والمسيحى ملتقى يجتمعون عنده ويبثون من على منبره الدعوة الى الكفاح والتضحية فى سبيل الحرية والعدالة : ا هـ « عن نشرة وزارة الارشاد القومى ومصلحة الاستعلامات » .

ضريحه

يقول أحد المؤرخين القدامى : وحدثنى قاضى القضاة بالاسكندرية قال : قبر سيدى أبى العباس عندنا ترياق مجرب ما قصد الله عنده أحد فى شيء الا استجاب له . كما قال أهل بغداد فى قبر سيدنا معروف الكرخى رضى الله عنه .

وكان قبره فى جبانة عليها حائط قصير ارتفاعه قدر ثلاثة أذرع . وفى قبلة الجبانة محراب للصلاة وعلى قبره سارية مكتوب فيها « يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » (الى قوله) « واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » وفيها تاريخ وفاته كما تقدم .

قال : فبنى عليه زين الدين المذكور ، لما رأى هذه الكرامة ورد الله عليه ما ذهب عنه ، بناء عظيما ، ومسجدا للصلاة ، وصومعه للأذان من أحسن صوامع الاسكندرية ، وحبس عليها حبسا كبيرا للمؤذن والامام والمقيم : وصار مزارا عظيما ومقاما كريما .

نفعنا الله ببركاته فى الدنيا والآخرة انه سميع مجيب ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبيه الأمين وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هديه الى يوم الدين .

من أهم المراجع

١ ـ لطائف المنن — للامام ابن عطاء الله السكندرى

٢ ـ درة الأسرار — لابن الصباغ

٣ ـ الطبقات الكبرى — للامام الشعرانى

٤ ـ الامام أبو العباس المرسى — للأستاذ أحمد حسن الدسياوى

٥ ـ أبو العباس المرسى — للأستاذ حسن السندوبى

الفهرس

صفحة

- مقدمة وتشمل :
- ضرورة المقدمة ، الاسلام والتصوف :

١ ـ ما هو المنهج الملائم ـ ٢ ـ التصوف والعلم ٣ ـ التصوف والعقل ـ ٤ ـ المنهج الصوفى ٥ ـ المنهج الصوفى منهج اسلامى ـ ٦ ـ التصوف لا يكتسب عن طريق القراءة ـ ٧ ـ التصوف والأخلاق ـ ٨ ـ التصوف والزهد ـ ٩ ـ التصوف والعبادة ـ ١٠ ـ وأن الى ربك المنتهى ـ ١١ ـ منهج التصوف فيما يرى الغزالى ، وابن خلدون ١٢ ـ ثمرة المنهج ـ ١٣ ـ تعريف التصوف ١٤ ـ تعريف التصوف فيما نرى ٥

- حياة أبى العباس ٣٣
- المربى ٤٧
- العالم ٦١
- المكافح ٧٣
- الصوفى ٧٩

صفحة

- المفسر ٩٠
- شـــخصيات ـ الهامات ـ عادات ١٢٧
- الصوفية ووحدة الوجود ١٤٠
- الأحـــزاب والأوراد ١٥٤
- مســجده وضريحه ١٦٤